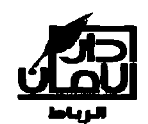
حسن أوريد





حسن أوريد

سيرة حمار



الكتاب	:	سيرة حمار
المؤلف	:	حسن أوريد
الناشر	:	منشورات دار الأمان
العنوان	:	4، زنقة المامونية - الرباط
الهاتف	:	05 37 72 32 76
الفاكس	:	05 37 20 00 55
البريد الإلكتروني	:	E-mail : libdarelamane@yahoo.fr
الحقوق	:	جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى	:	1435هـ - 2014م
الايداع القانوني	:	2014 mo 0071
ردمك	:	978-9954-561-77-5
السحب		مطبعة النجاح الجديدة - الدارالبيضاء

«Te voilà donc, après avoir affronté tant d'épreuves de toutes sortes, balloté par les terribles orages de la Fortune et les bourrasques les plus violentes, te voilà donc, Lucius, arrivé enfin au Repos et à l'autel de la Miséricorde. Ni l'éclat de ta naissance, ni ta situation de fortune, ni même cette science qui brille en toi ne t'ont servi à rien, mais entraîné par la pente glissante d'une jeunesse en sa fleur, tu t'es laissé aller à des voluptés serviles et tu as rencontré la récompense mauvaise de ta curiosité impure. Pourtant, l'aveuglement de la Fortune, qui t'a exposé, pour ton supplice, aux pires dangers, t'a, dans sa malice imprévoyante, conduit à cette sainte félicité où tu es maintenant (...) Que les impies te voient, qu'ils te voient et reconnaissent leur erreur; voilà un homme délivré de ses anciennes tribulations ».

Apulée : L'Âne d'or

لم يكن ما عشته في طفولتي وفي شرْخ شبابي يهيئني إلى ما سوف أعيشه من أحداث ومغامرات. كانت حياةً هادئةً كحيوات الطبقات المتوسطة من ساكنة أليلي الذين ليسوا من الباطرسيين، أصحاب النفوذ والجاه والسلطان، ولا هي حياة الدهماء من أصحاب الِحرف اليدوية. كانت أحلام طبقتنا أن تنال حظا من معرفة يُعين على شؤون الحياة في هذه المهن التي لا يقدر عليها النبلاء ولا ترقى إليها الدهماء، وتستلزم طول التعليم والمِران وحسن التدبير.

درجتُ في أحضان مدينة مولدي أليلي عاصمة موريتانيا الطنجية. كان والدي بوكود يوليوس يشتغل محاسبا في بلدية المدينة، وأما أمي إيزة فتتحدر من الملاّكين الأصليين الذي يحرثون الأرض ويبيعون نتاجها من الحبوب والزيتون والكروم إلى الرومان. حافظت أمي على

ثقافتها الأصلية، ترفض الحديث باللاتينية رغم حذقها لها وتأبى إلا أن تحدثني بالأمازيغية، وتتحفني أنا وأخي باعل بالقصص قبل أن ننام بلغتنا الأصلية . كانت أمي حريصة كل الحرص ألا ننغمس كلية في حياة الترف التي تتيحها مدينة أليلي، وألا ننغمر في أساليب حياة الرومان، عكس والدي الذي كان يريدنا أن ننسكب في قوالب روما فكان لا يتكلم إلا باللاتينية، ويحب الألعاب الرومانية، وعانق في فترة أمل الانخراط في الحيـاة السياسية، وانثنى دون ذلك لأننا لم نكن من الباطرسيين أو النبلاء، والسياسة شأن النبلاء، ولذلك عوّل والدي على أن يتدارك في ولديه ما حرمته الحياة. وجّه أخي باعل الذي كان قوي البنية إلى الانخراط في الجندية، فحارب في صفوف روما بأصقاع عدة، وانتهى به المقام بقرطخينة من بلاد القوط حيث استقر وتزوج، ووجهني للدراسات القانونية لأكون سياسيا، أو على الأقل محاميا أرافع في القضايا الجنائية والمدنية، أو يتاح لي بعدها أن أنغمر في سلك القضاء، فأنال حظوة وأظفر باليسار المادي وأنتهي إلى النُّجح الاجتماعي.

وكنت تلقيت دراساتي الأولى بأليلي حتى مبلغ الشباب، فحذقت اللسان اللاتيني حتى لا يُشقُّ لي فيه غبار، وألممت بعض الإلمام باللسان الإغريقي، فضلا عن لغتي الأم الأمازيغيية التي أتكلمها بالسليقة، ثم رحلت بعدها من مرفأ تين جيس إلى قيرطة لاستكمال دراستي، وكانت مدينةً آهلة بالسكان، تعرف حضورا للرومان قويا، ونشاطا تجاريا رائجا، وحركة عمرانية كثيفة، وحراكا معرفيا وثقافيا يضاهي روما. كانت قيرطة تشبه في أشياء كثيرة أليلي وتختلف عنها في أشياء. كانت منطبعة بأثر روما أكثر مما كانت عليه أليلي، وأما الأصليون من ساكنة قيرطة فلم يكونوا يختلفون في شيء عن السكان الأصليين لأليلي، ولا كان لسانهم يختلف إلا من بعض التمايزات في النطق أو في المعجم، وكان يكفي المرءَ مدة يسيرة ليدرك الاختلافات البسيطة ويتكلم لسانهم في يسر أو ينطاع له الفهم بلا عِوَج. كانت دراساتي حقوقية صرفا، وكانت قيرطة تضم ثلة من كبار الحقوقيين، بل من رجالات السياسة الذين فضّلوا العيش في قيرطة ونأوا عن صخب روما ودسائسها، بل

منهم من استقر به المقام هناك وتزوج منها. وحملت قيرطة هذ التزواج بين حضارة الرومان وأثر نوميديا التي هي جزء من الأمازيغ.

كانت تجربتي بقيرطة غنية تؤهلني لخوض غمار ما ارتضاه لي والدي، ولكن شغفي بالمعرفة دفعني لأن أستكمل تعليمي بقرطاج. كانت قرطاج شيئا آخر غير قيرطة وغير أليلي. كان أثر الحضارة الرومانية بها بارزا ولكنه لم يكن مهيمنا. كانت قرطاج تحمل أثر الحضارات المتحلقة حولها، كانت تحمل أثر الحضارة الإغريقية في جامعاتها ومعاهدها، وكانت فلسفة اليونان حاضرة في برامجها التعليمية، وكانت المعارف الرومانية تُلقى في دروس عدة بجامعاتها، سواء أتعلق الأمر بفلسفة شيشرون أم أشعار فرجيل أو ملحمة الإنياذة أو نظمها القانونية. وكانت إلى ذلك تحمل أثر الفنيقيين وبعضا من معتقداتهم، وشيئا من لسانهم وعوائدهم من ميل للاتجار، وركوب المغامرة، ثم كان أثر اللوبين حاضرا في حِكَمهم وآدابهم، فضلا عن أثر

القِبط من خلال طبهم وهندستهم وحكمتهم. وكان من ساكنة قرطاج من يَدين بالإلهة إيزيس، ومن يؤمن منهم بالحياة الأبدية بعد المات.

كان الذي استهواني بقرطاج هو فلسفة اليونان التي كانت تُدرَّس بها، وكان لزاما علي أن أجيد اللغة الإغريقية وأُعمّق معرفتي بها لأدرس الفلسفة اليونانية من مظانّها. وبقرطاج درست حِكَم مارك أورليوس، واقترنتُ بفتاة من مدينة سرين من بلاد سيرنيكا من اللوبيين تُدعى هيباتا أحببتها حبا ملك شِغاف قلبي. كانت ذات معرفة بالفلسفة اليونانية تتكلم لغتها سَهْوا ورَهْوا، فتحتْ عليّ ما استغلق من فلسفة الإغريق. وكان الإغريق قد أقاموا مستوطنة بسيرين ضاهت بلاد اليونان وبزّتها في النشاط التجاري، وكانت هيباتا هذه على إلمام بحكمة بلاد القبط، ملمة بلغتهم. واسترعاني تشابه لغة القبط القديمة التي لم تختلط بلسان الإغريق بلغة أهلي. كان هناك تشابه كبير في المعجم، بل في التركيب، وأدركت من خلال هيباتا الوشائج العميقة

بين ساكنة افريقيا من الأمازيغ وبلاد القبط. وحملتُ هيباتا لتصحبني إلى موريتانيا فأبت لأنها وحيدة أهلها، وألّحت علي أن أصحبها إلى بلادها سيرينكا فلم أَقْدِر أن أُخلف عهد والدي، وقالت قولة لم يزل صداها يتردد في نفسي إلى الآن :

- لسوف تسكنني يا أذِربال ما حييت.

وغادرتُ قرطاج لما أن غادَرَتْها هيباتا وفي القلب لوعة، وأبحرت إلى روما. وأقمت بها سنتين متنقلا بين معاهدها ومجالسها، وكان الترف يغلب عليها أكثر مما يغلب عليها الجِد، والميل إلى السياسية يطبعها أكثر مما يطبعها السعي إلى الحكمة، والناس لا تأتم فيها إلا بالمال، حتى أضحى لكل شخص من رجال السياسة ثمنا يُشترى به، وأزرى ذلك بعظماء روما من المفكرين والفلاسفة الذين ضاقت بهم سبل العيش واشتدت عليهم منافذ الحياة، فرَضوا بضيق الحال، وتحول بعضهم مستشارا لرجال السياسة يمحضونهم النصيحة ويدبجون لهم الخطب وفق

ما يريد هؤلاء الساسة وما تفرضه ظروف السياسية، لا ما تفرضه الحكمة وما تقتضيه المصلحة العامة. وكان منهم من أبحر إلى إفريقيا فاستقر بقرطاج، أو بحواضر بلاد الأمازيغ بدوگا وقيرطة، وشرشل، وتين جيس أو أليلي، فوجدوا بها سَعة بعد ضيق، ويسارا بعد عُسر، وأسهموا في نشر معارفها، حتى إن فلسفة الإغريق وحكمة الرومان ومعارفهم كانت أعمق في الضفة الجنوبية من بحر الرومان منها في الشمال. ولم تكن المعارف التي تُزجى بروما أعمق من تلك التي تلقيتها بقيرطة ولا بقرطاج. وأبحرت إبحار العائد من روما إلى تين جيس وقد قر عزمي أن أعود إلى موطني بموريتانيا الطنجية وعاصمتها أليلي، ولكني لم أعد أرى نفسي طالبا لحظوة سياسية أو مزاولا للقضاء.. كان أثر ما درست من فلسفة قد حوّل اهتمامي إلى البحث عن الحقيقة، وكان ذلك سعيا مني لأُبقيَ ذاكرة هيباتا وحبي لها.

كان خدم والدي في استقبالي، وهيّؤوا لي عربة من عدة أحصنة في طريق معبدة، في خمس مراحل من تين جيس إلى

زيليس، ثم ليسكوس، فباناصا، ثم بعدها تيسيرة، وبلغنا أليلي بعد رحلة من خمسة أيام.

وكانت عودتي إلى أليلي يوما مشهودا..

كان أوكتافيو عضوا في مجلس الشيوخ ممثلا لموريتانيا الطنجية، وكان كثير الأشغال، طويل الأسفار، وكان إلى مهامه السياسية رجلا ثريا له أراضٍ شاسعة، وله مصانع عدة لعصر الزيتون في موريتانيا الطنجية وفي موريطانيا القيصرية بل وفي نوميديا، وكان يُصدّر الزيت المستخلصة من معاصره إلى روما، وإلى أرجاء عدة من الامبراطورية. وكانت زوجته ثيوزيس ذات جمال وذكاء، التقى بها في واحد من أسفاره في إحدى جزر بحر إيجة، فصحبته إلى حيث موطنه بأليلي، وأنجبت منه أولادا ثلاثة، بوليوس الذي استهوته السياسة كأبيه فاستقر بروما، وأوفيد التي فضّلت هي الأخرى أن تستمتع بحياتها بروما وما تتيحه من متع وما تمنحه من تسلية، ورأت أنها تصلح للغناء فكانت تغني في مسارحها ومُدَرّجاتها. وأما أصغر أبنائهما ليسيوس فكان له

حظ آخر مع الحياة، إذ قضى غرقا في رحلة من الرحلات ما بين تين جيس وروما. وقد أثّر ذلك على أسرة أوكتافيو، أو على الأصح على ثيوزيس التي استشعرت الوحدة واستبد بها القنوط. ولم تجد السند من زوجها الذي عاود نشاطه السياسي وغرق في شؤون تجارته الواسعة، وشغلته أمواله الطائلة عن زوجه وثُكلها وأحوالها.

كانت ثيوزيس ذات معرفة نهلت من معارف الإغريق، وعرفت بعضا من حكمتهم وإن لم تتعمق في ذلك، وكانت تحب قبل أن ينشغل زوجها عنها الأمسياتِ التي كانت تقيمها في بيتهم الفخم بأليلي غير البعيد عن قوس كاركلا حيث يقطن العلية من ساكنة أليلي، فيحضر تلك الأمسيات القنصل الأول، وحكام المناطق، وأعضاء مجلس الشيوخ، وضباط روما وأثرياء موريتانيا الطنجية، يأتون من صالا، أو من ليكسوس أو حتى من تين جيس، أو بعض من أصدقائها من موريتانيا القيصرية أو نوميديا يقصدون لصيد السباع، ويحضر إلى ذلك الفلاسفة والشعراء والمسرحيون، فأخذت ثيوزيس حظا من معرفة، وأُنيلت

جميل الأحدوثة واشتهرت بحضور البديهة. ثم ملكت روما زوجها فتناءى عنها، وأناخ الحزن ببيتها لما أن توفي ابنها فلم يعد يحتضن تلك الأمسيات الرائعة التي تتحدث عنها أليلي، وتوالت عليها الوحدة فأخذت تستضيف بين حين وحين فلاسفة وشعراء في أمسيات مغلقة. وحدث أن استضافتني إلى تلك الأمسيات وقد بلغها مَقْدمي. كانت تريد أن تستزيدني معرفة عن الأفلاطونية الجديدة التي برزت بالإسكندرية، وكانت ثيوزيس تُزري بتلك الفلسفة التي تمزج الروح والعقل، وترى ألا سبيل للمزج بينهما. كنت أجالسها في بيتها المطل على السفوح، تجللها أشجار السَّرْو وكان قرص الشمس قد مال إلى المغيب. لم أر يومي ذاك غروبا للشمس أجمل من ذلك الذي يتراءى من أليلي، فدعتني إلى أن أنظر إلى المغيب بحضرتها، فوقفنا من شرفة البيت ونحن نرمق أفول قرص الشمس وتَضَرُّجَ الشفق، حتى إذا الشمس غابت نادت على الخادمات بإشعال القناديل الزيتية في أرجاء البيت، ثم قالت قولة ما زالت أذكرها :

- كما أن جمال الشمس لا يتبدى إلا أثناء الغروب، فكذلك حياة الإنسان لا يبدو جمالها إلا ساعة الأفول، وكم من حياة يجللها الغيم فلا يظهر جمالها البتة.

وتأهبتُ للمغادرة فاستبقتني، ثم نادت على الخادم أن تُحْضر نبيذها الخاص، فأسلمتني قدحا من خمرة معتقة لم أشرب قبلُ ألذ منها. ثم استزدتها الشرابَ وسألتني عن دراستي ومُقامي بقيرطة وقرطاج وروما وعما كنت أعتزمه القيام به في حياتي، فأخبرتها برغبة والدي في أن أنخرط في السياسة، فأثنتني عن ذلك، ثم حدثتها عن المحاماة، فلم تر في ذلك طائلا لأن المحامي النزيه عُرضة للفقر، وإن رام الغِنى لم يَصْفُ لمهنته.. فلما تقدّم الليل، هممت بالمغادرة فصدّتني وقالت : لا يكون ذلك قبل العشاء. شعرت بأن السيدة في حاجة إلى الحديث، وأن الوحدة أثقلت عليها، وأنها تعدم مخاطبا تحدثه في فلسفة الإغريق، وأدب روما وحكمة اللوبيين. واستمر العشاء إلى ساعة متأخرة، ونالت الخمرة منّا منالها، ولم أشعر إلا وأنا أضم ثيوزيس إلي فلا تمتنع، وأقبّلها فلا تعارض، وأجيل يدي في جسدها البضّ

فتستسلم لذلك، ثم هي تأخذني إلى مخدعها، فنستلقي على السرير وننزع عنا لباسينا، ثم أضاجعها ولا أغادر إلا وقد لاحت أشعة الشروق.

واستحكمت علاقتي بثيوزيس، وشغلتني عما كنت أعتزم في حياتي العملية، وأغضب ذلك والدي، وخشيت أن أجاهره بعزوفي عن السياسة أو حتى المحاماة. أما أمي إيزة فقد شعرت أن بنفسي شيئا فصارحتني في رفق :

- إنْ تهوَ فتاة فلا عليك أن تتزوجها عوض هذا الحالة التي أنت فيها وتفسد عليك أمرك.

وكانت أمي قد أحسنت التشخيص ولكنها لم تحسن العلاج، فكيف أتزوج امرأة في الأربعين من عمرها تكبرني بخمس عشرة سنة، وهي إلى ذلك متزوجة، وكيف تَقبل المدينة أن تقترن زوجة ممثلها في مجلس الشيوخ بفتى في مقتبل العمر. هي الفضيحة بعينها. كنت أشعر بلذة عارمة كلما كنت جليس ثيوزيس. كنت أذهل عن كل شيء إلا جمالها وحُسن حديثها ورقّة شؤونها وجمال منطقها، فإذا

نأيت عنها أمضّني شعور مزيج من الندم ومن استحالة المآل، فأقرر قرارا أن أنأى عنها كلية، فإذا أفلت الشمس وانتشر الظلام وأطبق الليل على أليلي حملتني قدماي إلى حيث هي. وقد أضحت خادمةٌ لها من بلاد القبط تدعى حاتبوت شريكة في السر، متورطة في الأمر. وكانت شديدة الاهتمام بأمري، تغلو في الاعتناء بي. وكانت ذات جمال آخاذ، تميل بشرتها إلى السمرة، وكانت عيناها نجلاوين، وكانت تضع على حدقتيهما الكحل كما يفعل القبط.

كانت ثيوزيس تقرأ ما يدور بخَلدي من وَخْز الضمير، وتدعوني لأن أستقبل الحياة بلا تسآل يعكر صفو ما نعيشه من لذة، وما نشترك فيه من نعيم، وقد أوحت إليّ ذات مرة أن نفر من أليلي ونعيش بعيدا عنها، وأظهرت لها عدم صواب ذلك، إذ لسوف تبلغنا جنود روما مهما نفعل، ثم أوحت مرة أن نفر خارج أسوار الليمس فنعيش بعيدا عن سلطان روما بين البرابرة حياة ضَنكا ولكنها حرة، ونعرف فيها بعض الشّظف ولكنّا ننعم فيها بالحب، وزيّنتْ إلّي ذلك وسوغته بمعرفتي لعوائد البرابرة المتحلقين بأسوار

الليمس، وأثنيتها عن هذه الفكرة الخرقاء، وكيف نأمن غوائل قبائل شديدة المراس لها أحقاد على روما وهي تحسبنا من الرومان ولو لم نكن من الرومان. وكان أن أسَرّت لها خادمتها حاتبوت أن نتناول شرابا نتحول إثره إلى طائرين فنحلق في الأجواء فلا تنالنا يد الحاكم ولا جند روما، حتى نبلغ مأمننا ونتناول شرابا آخر يعيدنا سيرتنا الأولى من سِيَر البشر.. وقد ارتبت في شأن هذا الدواء، ولكني لم أرد أن أغضب ثيوزيس، وهي نفسها لم تكن لتوقن في شأن شراب يُغيّر خِلقة الإنسان ولكن الحُبَّ أعماها، وهي صاحبة العقل، بل إن كثيرا من الحماقات مصدرها العقل حين يخضع للهوى نُحَكّمه لتسويغ ما تهوى النفس وتبريره. وحضّرت الفتاة حاتبوت الشراب، وقر أن نتناوله ليلا حتى نستأنس بحالنا، فإذا أسفر الصبح حلقنا في السماء.

لزمتُ والدتي ذاك النهار في حلْقة البيت، وطلبت منها أن تحدثني ببعض قصص أهلنا من الأمازيغ، فأبت علي ذلك لأن القَصص لا يكون إلا ليلا، وفضّلت أن تمحضني بعضَ الحِكم، وكان مما أذكره حكمة مفادها أن من أضلته

جوارحه، يهديه فؤاده إن تطهر من أدران الهوى. ثم رُغْتُ على أجنحة البيت زيارة مودّع، حتى إذا مالت الشمس إلى المغيب، قصدت بيت ثيوزيس فشربت خمرة معتقة، واختليت بها في مخدعها، ونلنا حظنا من لذة، ورسمنا ما نبتغي من حياة بعيدا عن أليلي وموريتانيا بل عن سلطان روما إلى بلاد القبط وعاصمتها الإسكندرية، فإذا كان منتصف الليل أتت الخادم حاتبوت بالشراب، فألقت إلي بابتسامة مغرية ونظرت إلي بعينيها النجلاوين، ثم تحولت عني. نقعت من الشراب فإذا هو سائغ لذةٌ للشارب، ثم نقعت ثانية وضممت إلي ثيوزيس، فغلبتني نشوة لم أعرفها قط بددت المخاوف كلها فاستصغرت كلَّ جليل وهزأت بكل صعب، ثم أكببت على الشراب حتى أتممته، وطلبت قدحا آخر، ثم شملتني غشاوة، وشعرت بأزرار سراويلي تنفجر، وإذا أيْري يمزق قماش سروالي وقد انتصب انتصابا مذهلا أخجلني، وإذا حجمه يكبر بشكل مريع، وإذا هو أشبه ما يكون بعضو حمار، وقد لجّت ثيوزيس في الضحك لهذا المنظر المريع، ثم فجأة انفجرت صارخة، فقد تمزقت

ثيابي كُلَّها، وتكلس جلدي، وتحولت يداي ورجلاي إلى قوائم، وكبرت أُذُناي، وإذا أنا حمار وليس ما كنت أعوّل من طائر يحلق في الأجواء..وتوالى صراخ ثيوزيس، وأدركتها خادمتها حاتبوت، فرأت أن الشراب لم يحولني طائرا ولكنه مسخني حمارا، ومنعت حاتبوت ثيوزيس من الصراخ، وأخرجتها من الغرفة، وسعيت أن أصرخ في وجه حاتبوت لكي تنقذني وتعيدني سيرتي الأولى فإذا الذي يخرج من حنجرتي نهيق الحمير، وأسعى ثانية فلا يخرج مني إلا النهيق، وإذا أنا أمسك خشية أن يفتضح أمري، ثم إن حاتبوت جمعت ملابسي المزقة حتى لا تُبقي أثرا لحضوري، وانصرفت غير مكترثة بى، وقد قمَصتُ بقائمتي على فسفيساء الغرفة لتنقذني أو تنظر في أمري، ولكنها كانت في شغل عني. نظرتُ في مرآة، فإذا أنا حمار كامل الأوصاف لا أختلف عن الحمير إلا في شيء أضحى مصدر معاناتي هو قدرتي على التفكير، إذ كان الأمر سيهون لو حُرمت التفكير وعشت حياة الحمير لا أختلف عنها في شيء، والحال أني سوف أعيش وسط الحمير حمارا يأتي ما تأتي ويحمل من

الأثقال ما تحمل، ويختلف عنها في شيء، قدرته على التفكير، ويؤلمه ألا يحسن التعبير عما يجيش به صدره من أحاسيس ويمتليء به من رُؤى. وها هنا تبدأ مغامراتي التي أريد أن أبثك إياها أيها القاريء فلا تَنْـأ عني، لم أعد أذِربال مُواطن أليلي الذي نال حظا من فلسفة ، وقسطا من معرفة، وأوتي حسن البيان، بـل أسنوس، وهو لقبي الجديد حيثما رحلت وارتحلت، وحيثما رتعت وركضت، يعبث بي العابثون ويُعرّضونني لصنوف من العذاب والهوان.

أفاق الخادم المكلف بتنظيف بيت أوكتافيو على منظر مُهْوِل وهو يقتحم غرفة الضيوف لتنظيفها لحمار مستكين تـدلَّى رأسه حتى كأنه يلامس الأرض، وقد تهاوت أذناه من أسى، وحوله بقعة كبيرة من سائل هو بوله. نعم تبولت فَرَقا وقد انسدّت عني الأبواب ولا أستطيع فتحها، وغُلّقت دوني المنافذ، وسمعتُ جَلَبَةً هي جلبة حاتبوت وثيوزيس وهما تغادران غير آبهتين بمصيري. ولم يَجِدِ الخادمُ بدّا من الصراخ في وجهي، ثم المناداة على الخدم جميعهم لمشاهدة هذا المنظر المريع، منظر حمار في غرفة الضيوف وقد ثلم حرمتها بأن أطلق بوله فيها حتى بلل بعض الطنافس ومس بعض التحف. تحلقوا حولي، وهم يصرخون في وجهي :

- ويحك يا حمـار، أكبُر شأنك لتقتحم مكانا هو مخصص لعِلية القوم ثم تقضي به حاجتك لا ترعى حرمته؟

فانثالوا علي ضربا في كل موضع من جسدي، ولم أكن أقدِّر أن الحمير تألم لما يصيبها من ضرب إلا يومي ذلك، وحاولت أن ألتمس الشفاعة فرفعت صوتي، فإذا صوت منكر يخرج من حنجرتي هو النهيق، وزادهم ذلك حَنَقا، فأشبعوني ضربا، ثم أخرجوني من البيت وأطلقوا الأطفال على أثَري يرجمونني بالحجارة. وقد تبين الخدم، وقد رأوا كسر بعض الأواني وغياب بعض التحف، أن البيت تعرض لسرقة، ثم بحثوا عن الخادم حاتبوت فلم يجدوها ولا سيدتها التي لم تكن تغادر فراشها قبل الظهر، وأيقنوا أن المرأتين اختُطفتا، وأني حمار المختطفين، وأني شريك في هذه الفعلة الشنعاء، فنكّلوا بي تنكيلا، إذ لم يكتفوا بالضرب، بل كانوا يغرزون أدوات حادة في جلدي حتى أدموني، ويُدخلون عصيهم في دبري، واجتمع الناس بالفوروم يتساءلون في شأن المختطفين الذين انسَلّوا خُلسة من أسوار أليلي إلى بيت أوكتافيو وأخذوا زوجه وخادمتها. وأتى حاكم المدينة وبعض مساعديه، ثم أخذوا معلومات من الخدم، وحدثوه في شأن الحمار، وأمرهم أن يبقونني حيا لاستكمال البحث. لولا الحاكم لكانوا قضوا عليّ.

ثم نودي على عَسَسَ أبواب المدينة لاستقصاء الخبر حول المختطفين الذين تسربوا في غفلة منهم، وأقسموا جميعهم أنهم لم يناموا طرفة عين. وسرى الاعتقاد أن المختطفين تسربوا نهارا واختلطوا بالساكنة، وأنهم لا يعدمون متواطئين آووهم، وعمت الجلبة في شأن هذه العملية التي أضحت تهدد أمن أليلي. كنت أصيخ السمع وقد غدا سمعي مرهفا، وألقي بصري بعيدا وقد عاد حديدا، وكان الناس في شغل حين رأيت هامتين متنكرتين تخرجان من باب المدينة في غفلة من عسسها، وأدركت أنهما ثيوزيس وحاتبوت كانتا قد اختبأتا حتى الصبح وانتظرتا أن يخفّ حذر المدينة لتستغفلا عسسها وتخلصا في غفلة منهم. وكدت للحظة أن أركض نحوهما، وراودتني نفسي أن أصرخ في اتجاههما، وتبينت أني لو فعلت لكان خرج من حنجرتي نهيق مُنكَر يفتضح فيه سر المرأتين وينكشف فيه أمري، والخيرة أن أمسك وأرضى بحالي.

وبينما الناس في هرج ومرج في شأن المختطفين الذين تسربوا إلى المدينة في غفلة من حراسها، ولم يبق من

رسمهم إلا حمارهم، إذ أقبل رجل كهل ينادي في الفوروم بأن ابنه أذربال غاب ولم يجد له أثرا. كان ذلك الرجل أبي بوگود يوليوس وقـد تحلق الناس حوله يستزيدونه الخبر، ويريدون أن يعلموا إن تعرض بيته للسرِقة، وهو يكتفي بالقول بأن ابنه خرج ليلا كما كان يفعل، وقد قدّر هو وأمه أنه لربما قصد مقصفا كما دأب ولكنه لم يعد..ونظرتُ إلى والدي، فرأيته ذاهلا شاردا يخشى أن يكون حاق بي أذى من اختطاف، وكيف لي أن أقول له إن ابنك مُسخ حمارا، وحتى لو أردت، كيف لي أن أفعل، وهل سيدرك نهيقي؟ ولو هو علم بذلك واستطعت أن أبلّغه، فموتي أهون لديه من أن يعلم أن ابنه أصبح حمارا.

واستشعرتْ أليلي خطرا محدِقا، ورأت أن من اختَطف زوجَ أكتافيو وخادمَتها وأذربال عصابةٌ تريد بأليلي سوءا، وأن هذه العصبة لن تقف عند هذا الحد إن لم تُجمع أليلي أمرها وتواجه الخطب بالحزم والعزم. ورفض حاكم المدينة التسرع في الحكم، وأمر أن يُكثَّف البحث عن أذربال بأليلي وفيما يحيط بها من حدائق وضِياع.. وذهبت ساكنة أليلي

مذاهب عدة في التحليل حول العصابة التي هاجمت أليلي ودواعي اختطافها لزوج أوكتافيو الذي أصبح له نفوذ بروما، وتريد العصابة أن تضعفه ليسحب ترشحه لولاية أخرى، وتذهب إلى أن اختطافي يندرج في عملية كبرى، وأن خيوطها لم تظهر بعد، والحال أن شخصا، عفوا، حمارا، يدرك الحقيقة كلها، ولو كلفت المدينة نفسها عناء الاستماع إليه لأبلغها الحقيقة، ومن ذا يستمع للحمير؟

وأُودِعتُ بمربض الحيوانات حيث توضع الدواب الضالة، وكان خارج المدينة مصاقبا للفوروم لا يفصله عنه إلا سور المدينة. ووجدت به بقرة أكلت من زرع واحد من كبار المُعمرين، وكلبا ضالا عض بعض السابلة، وديكا كان لا يني ينعق صباحا غير بعيد عن مسكن عضو من أعضاء مجلس المدينة حتى ليصد عنه النوم.

ثم غُلقّت الأبواب، ولم نجد في المِذْود طعاما، عفوا، حشيشا ولا تبنا. كانت البقرة ساهية تجتر ما أكلت، أما الكلب فقد بادرني بالنباح وكاد ينقض علي.. واعتلى الديك

في شُرف بعيدا عن خطر حيوانات ضارية. وأوتي لنا في نهاية النهار بعض ما فضُل عن الحراس لفائدة الكلب وكومة تبن نتوزعها أنا والبقرة وبعض الحِبِّ للديك، ومددت شفتي في اتجاه الصحن الذي به بقايا لحم وعظم وفتات خبز، فزمجر الكلب، وتبينت أني لم أعد إنسانا، وعلي منذ اليوم أن أُسير حياتي وَفق سِيَر الحمير، فانثنيت إلى كومة التبن، وإذا البقرة تدفعني دفعا حتى كاد قرناها أن ينغرزا في .. وحاولت أن أختطف منها بعض التبن وهي تهدد برأسها كل مرة لتصدني، فأبلغُ ما أريد حينا وأُصَدُّ أحيانا، حتى أتت البقرة على كومة التبن، واستلقت في جانب المربض تجتر، وبقيت أتضور جوعا وأتملى هذا الذي أنا فيه. وقد حسبتُ للحظة أن ما أنا فيه كابوس ما ألبث أن أستفيق منه. وهل أنكر جلبة المدينة وجزع والدي؟ هي حقيقة. لقد تحولت إلى حمار وكنت آمل أن أصير طائرا يحلق في الأجواء لا يعترضه معترض من وهاد ولا عقبات. نقعت شرابا خلته يرفعني فإذا هو يحط بي. أمّلت أن تزداد متعي، فإذا أنا أُنزَع من إنسانيتي وأُسلَب تميزي وأُرَدُّ إلى عالم الحيوانات.

ولو أقسمت وألحفت في القسَم لهؤلاء الذي يحبسونني من أني بشر مثلهم لسخروا مني، ولو استطعت أن أدسّ ذلك للحمير لهزئوا بي، فعليّ منذ اليوم أن أقبل حُكم البشر عليّ، وعليّ أن أنظر إليهم لا كما كنت أفعل من ذي قبل، ولا يهمني منذ اليوم صدقهم ولا كذبهم، أو فلسفتهم في الحياة إن كانت لهم فلسفة، تهمني أشياء بسيطة، هل سيطعمونني من جوع وهل سيُؤمّنونني من خوف. إلى هذا رُددت، وعليّ أن أقبله، وإلا فلسوف أموت، ولو مت لمت حمارا، والحال أني أؤمل أن أُرد إلى حال الإنسان. لم يكن الأصعب نظرتي إلى بني الإنسان، أو نظرتهم إلي، بل نظرتي إلى نفسي؟ هل أنا حمار يأتي ما تأتي الحمير، أم أنا إنسان؟ أوطن نفسي أن أصير حمارا فيأبى شعور علي ذلك، وآية ذلك أني لا أزال أفكر، وأعي، وأسمع، وأفهم، وأقرر قرارا أن أظل إنسانا، فأتبين أني لا أستطيع، فلم يعد لي منطق الإنسان ولا مظهره، ولست أستطيع هذه الأشياء البسيطة التي أوتي الإنسان وحُرمتها منذ مُسخت، لست أستطيع النطق، ولست أستطيع الحب، ولست أستطيع الغضب.. وهب أني أردت

الحب، فهل أحب امرأة؟ وكيف لي ذلك، فكيف أعانقها، وكيف أقبلّها، ناهيك عن أشياء أخرى، أم أنـي سأنزو على أتان أنال منها وطري. وكيف أقبل أنا الإنسان أن آتـي الأتان؟ وهل ستحبل مني بشرا أم جحشا؟ ألا ما أشقاني؟ ألا تبّـا لك يا حاتبوت، تبّـا لما سولت لك نفسك من عالم السحر والشعوذة؟ أتُـراها كانت تعلم ما تفعل، وتقصد لما تفعل؟ أم أن ما حصل كان خطأ لم تقصد إليه. لو لم ألتق بثوزيس لما حصل ما حصل، ولو كنت قبلت بعرض هيباتا لكنت اليوم بالإسكندريـة متقلبا في معاهـدها الفكريـة، أو لربما استقررت معها بأويا (أو المدن الثلاث، طرابلس)، أو بسيرين.. أكان عليّ أن أعود إلى موطني لأصبح حمارا؟

وذهب عني النوم، حتى إذا أردت أن أغمض عيني، صرخ الديك، فتعالى نباح الكلب، وأعقبهما مُواء البقرة، وأدركت أني لن أستطيع النوم، وبقيت ممدا على الأرض، أزيح بذيلي بين حين وحين الذباب المتحلق حولي.

سُمعت حوافر خيل وهي تركض من مدخل المدينة في اتجاه قوس النصر، ثم عمّت جلبةٌ الفورم وبلغتني من مربضي أصداء ما كان يتردد، ذلك أن الفارس أتى ركضا ليخبر المدينة خبرا مفجعا هو مقتل أذربال. فلقد أتاها الفارس ببقية من ثوبه ملطخا بالدماء. وعم الهرج الفورم، وسمعت القوم يزعمون أنْ قتلته الفئة الباغية من المختطفين، ويزعم آخرون أنْ مزقته السباع شر ممزق، وكلا الفريقين واثق من حكمه، ثابت في زعمه.

وسمعت صوت عربة، فإذا هو حاكم المدينة قد حل بالفورم ليحدّث القوم ويخفف من التياعهم، وانتهى إلي حديثه رغم الجلبة والصخب :

«- مواطني أليلي المغاوير،

لقد عاشت مدينتنا خلال الأيام الثلاثة أحداثا مؤلمة عكّرت صفوها، فقد تم اختطاف زوج شيخنا أوكتافيو وخادمتها، وسُرق متاعهم، وامتدت أيدي العدوان إلى الشاب أذربال، وهو من خيرة شباب أليلي، بل موريتانيا، أنشأتـه روما وأحسنت تـنشئته، حتى إذا بلغ أشُدَّه لكي يفي بدَينه لها اختطفته يد الغدر.

لقد سعت مصالح بلدية أليلي التحري قبل أن تصدر حكما حول مآل أذربال، ووجهنا فرقا للبحث في كل مرافق المدينة ونواحيها، ويؤسفني اليوم أن أنعي لكم أذربال. لقد وجدنا على مقربة من تالا نْ تازارت بقايا من ثيابه ملطخة بالدماء. وستقيم المدينة جنازة رسمية وفاء لذكراه.

إن على عاصمة مـوريتانيا أن تظل متيقظـة لكل الأخطار التي تتهددها. لقد كنـا نخشى خطر البـرابرة، ووضعنا لذلك حدودا تفصلنا عنهم، ويتبين مما عشناه أن أخطارا داخلية تحـدق بنا. إننا نواجـه ظروفا عصيبة ينبغي التصدي لها بحزم.

عاش القيصر. عاشت رومـا».

وتعالى الهتاف والصراخ، وتبدد طرح مقتلي من قِبل السباع وقد زعمت السلطة أني قُتلت من لدن المختطفين المزعومين. وتمليت من محبسي خطاب حاكم المدينة.. وأي أخطار تتهدد المدينة؟ فثيوزيس لم تُختطف وإنما هُـرِّبت خشية الفضيحة، وأما أذربال فلا يزال حيا، يعيش وسط أليلي وساكنتها قد تحول إلى حمار لأنه أخطأ التقدير في شراب حسب أنه يرفعه للسماء فحطّه إلى الأرض. وهل حاكم المدينة صادق في زعمه، أم أنه محتاج للتلويح بخطر ليخفي فضائحه المالية التي سرت وفشت، وتهدد إعادة تعيينه تارة أخرى؟ ثم ما شأن الثوب المبرقع بالدم؟ أفلا تكون حيلة قامت بها حاتبوت لتصرف الاهتمـام عنها وعن سيدتها، فتَخْلُص أليلي لحادث النعي وتنسى ثيوزيس وخادمتها إلى أن تبلغا ليكسوس أو تين جيس فتركبا البحر إلى بلاد القوط، أو بعيدا إلى إيجة، أو أي مكان آخر..؟

تفكرت في ذلك كله، وقّدرت أن لو أتيح لي الكلام لتغيرت أشياء كثيرة في أليلي، بل في موريتانيا كلها.

أقيمت جنازة ضخمة لي، إذ أعلن حاكم المدينة يوما كاملا حدادا علي، ونادى بذلك مناد في الفورم، وتَجَمَّع جم غفير من الناس منذ الصباح بقوس النصر ليصحبوا الموكب، وقد تتبعت من مربضي كل تلك الجلبة والموسيقى الشجية التي صاحبتَها، حتى خرج الموكب من الباب الشمالي للمدينة ويمم المقبرة. ولم يكن هناك جثمان يُحمل، وإنما شاهدة من رخام يُكتب عليها اسمي وسني، بالحروف اللاتينية وبحروف تيفيناغ نُقشت على عجل لكي توضع بالمكان المهييء ليحتضن ذاكرتي، ورأيت شخصا يحمل قيثارتي لكي تدفن معي، وهي من الأدوات الغنائية الأثيرة لدي، ثم يلقي الجمع، وفق الطقوس الأمازيغية بكومة من حجارة، حتى تستوي هرما يسمي بازينا. كنت أشاهد من مربضي الموكب الجنائزي يتقدمه حاكم المدينة، وبجانبه

رئيس بلديتها، وعن شمالي والدي بوكَود، وكنت أرى والدتي متخلفة عن الركب قد لبست لباس الحداد، حتى إذا بلغ الموكب المقبرة أقلع العازفون عن الموسيقى واجتمع المشيّعون حول حاكم المدينة، وقد ألقى خطابا مسهبا في نعيي، وأطرق الناس جميعُهم لخطبته العصماء، وللخسارة الكبرى التي مُنيت بها أليلي في فقدان واحد من أبنائها البررة. ولم تكن خطبته تخرج عن سياق التعابير المعتادة ولا المصطلحات المتداولة، وكان ما يهم الحاكم هو أن يُقدّم نفسه مدافعا عن المدينة، صائنا لكرامتها، صارما حيال أولئك الذين يريدون بالمدينة سوءا، ومتوعدا بالانتقام من هؤلاء الذين امتدت أيديهم إلى المدينة واغتالوني.

ثم تقدّم شخص آخر لا أعلم من أمره شيئا أخذ يسهب في مناقبي، ويتحدث عن مساري في كثير من التقريب، يخلط بين العلوم التي تعلمت، والأماكن التي بها درجت، ويحمّلني من الأوصاف ما لست أهلا ومن السجايا ما لا تتيحه سني .. وقد غلبني الأمر فلم أطق صبرا، فنهقت نهيقا اهتز له المكان بلغ صداه المقبرة، وقد ارتاع المعزّون

في شأن هذا الحمار الذي لم يجد لحظة للنهيق غير هذه التي اجتمع فيها ساكنة أليلي لتوديع واحد من أبنائها. وقد سعى الناعي أن يتم التأبين، فعاودت النهيق حتى أفسدت عليه أمره، وسمعت صوتا هو صوت أمي تردد :

- ابني لم يمت، ابني ما يزال حيا. لن أنعيَه وهو على قيد الحياة.

ثم غادرتْ جمع المشيعين، وقد سعى والدي أن يثنيها فرفضت، وتوقفت مراسم الجنازة.

وما هي إلا لحظات حتى فُتح المربض، وإذا حارس غليظ يحمل عصا ذات مسامير ينهال علي ضربا مُبَرّحا حتى أدماني، واستسلمت مضرجا في دمائي أئن من الألم حتى إني فقدت الوعي، وتراءت لي صور غير صور واقعي، فرأيتُني فتى قويا رشيقا يخطب في أليلي، ويهتز الجمع بالفورم لذلاقة لسانه، وقوة بيانه، وعميق فكرته، وفي الصفوف الأمامية هيباتا ترمقني بنظرها العطوف وأنا أبدي وأعيد في قولي الذي أريده نبراسا لساكنة أهلي :

«ساكنةَ أليلي، وكل أرجاء موريتانيا الطنجية، بل كل بقعة من أرض الأمازيغ :

لقد طوّفت أرجاء عدة لأقول لكم إخوتي إنّا تأثرنا بحضارات عدة مثلما أثّرنا فيها، وأن لا خطر يتهدد شخصيتنا العميقة من هذا التفاعل. إن الخطر كل الخطر، أن نختزل تلك الشخصية في جانب ونصدف عن التجربة الإنسانية التي أتيحت لنا من الحضارة الفرعونية فالإغريقية والرومانية وقبلها الفنيقية. إخوتي إننا لسنا طارئين على هذا الرصيد الإنساني، لسنا متسولين، هو جزء منا ونحن جزء منه. إن الأمم العريقة هي التي لا تخشى الانفتاح ولا تتأذى من التلاقح، أما تلك التي تروم ما تزعم من صفاء فيتهددها الذبول، بَله الفناء..لقد ركبت البحر من تين جيس إلى قيرطة، ومن قيرطة إلى قرطاج، وبها التقيت أقواما عدة من سيرينيا، ومن بـلاد القبط، ومن بحر إيجة، ثم استقر بي المُقام بروما. هناك شيء ما يجمعنا، إخوتي، هناك سدى حضاري نشترك فيه، تتحول بؤرته من مكان إلى آخر من بحر الرومان، كما ينتقل القمر في دورته، يختلف

شكله ومداره، ولكنه نفس القمر، وهو مصدر الضياء في الليل البهيم. هو هذا الذي أريد أن أقول لكم إخوتـي.. لنا ذهنية هندسية تُفضّل الخط المستقيم على المنحنى، لنا نزوع إلى البناء بالحجر عوض الطوب والتراب، لنا ذهنية عقلانية تربط بين الأشياء وتقيم بينها علاقة سببية ولا تؤمن بشيء يسمى الإشراق، وتميل إلى التحليل المتأنـي الموضوعي. تحب الحياة وتعشقها، ولا ترى في الجسد إصرا، ولا في الحب غِلاّ، ولا تتستر على ذلك بالأكاذيب والأراجيف.

نعم، داعبني في فترة شعور الانغمار في السياسة، وقُصارى أمري لـو فعلت أن أظفر بلقب يفرض علي الخطاب الذي ينبغي أن أتلوَه فـلا أخرج عنه، وهـل يستطيع الساسة أن يخرجوا من خطاب مرسوم سلفا؟ هل يستطيعون أن يروا أبعد مما تتيحه مصالحهم، أو ما تفرضه تحالفاتهم من أجل منصب، أو عهدة أو لقب؟ لذلك صدفت عن ذلك كله لأقول لكم الحقيقة، وقد تكون مُرّة، وهي أن أذَكّركم بما أنتم.

لا تخشوا ثراءكم لأنكم إن فعلتم عصفت بكم الأنواء، وانقض عليكم الغرباء، وقَلَبوا الأمور عليكم رأسا على عَقِب، فأضحوا سادة وأنتم مسودين.

لا ضير إخوتي أن تضلوا السبيل، والخطر كل الخطر أن تتمادوا في الضلال».

وتعالت موجة من التصفيقات، وارتمت هيباتا في حضني مشجعة مثنية :

- هذا الذي نحتاجه عزيزي في هذه الآونة، أن نُذكّر أهلنا ما نحن في حقيقة الأمر. لقد ذهلوا عن حقيقتهم وتفرقت بهم السبل».

ثم فتحت عيني فإذا أنا في الحظيرة الموبوءة التي حُبستُ فيها، تنبعث منها روائح كريهة، وإذا أنا حمار جريح يحوم حوله كلب مسعور يتهدده، وتمنعه الحشيشَ بقرة جلْفة، ويذود عنه النومَ ديك أرعن.

وظللت ملقى لأيام بالمربض لا أنال من طعام إلا ما يفْضُل عن البقرة، ولا أظفر بنوم إلا ما يريده الديك، ولا أتحرك إلا في الحيّز الذي يسمح به الكلب.

ورأى موظف بالبلدية أني أكلّف ميزانية المدينة عبئا وأن لم تعد هناك من حاجة للإبقاء عليّ بعد مقتل أذربال واستحالة فك خيوط العصابة المزعومة ويحسن لذلك بيعي في المزاد العلني. ولو قلت لساكنة أليلي إني أذربال، وإني ما أزال على قيد الحياة، وأن ليس هناك من عصابة، لنفروا مني لأنهم أنِسوا بحقيقة مزيفة وضعوها، وأكاذيب تواضعوا بشأنها ووجدوا فيها مصلحتهم.

وأُخرِجت ذات صباح إلى السوق البلدي لعرضي على البيع، وكنت ضامرا هزيلا، فأعرض عني المشترون، اشتراني أخيرا حمّال ينتقل بين الأسواق بحميره يحمل البضائع إليها.

كان مالكي هذا الذي اشتراني شحيحا مُقتّرا، وكان إلى هذا فظا غليظ القلب ولو هو يبدي خلاف ذلك. فهو دائم الابتسامة ولكن عيناه تحدّث عن سريرته، يترآى منهما الخبث. كان يرى أنه لكي يضاعف من ثروته أن يأخذ من أرزاق مستخدميه، ويغش المتعاملين معه، ولم يكن صاحب ذهن ثاقب يصرفه لتغيير سبل التدبير، أو لاقتحام آفاق جديدة، أو التفكير في أنجع السبل للإنتاج. كان يستخدم بعض الحمّالين الذي يحملون البضائع للأسواق، ويتفق معهم على سعر، فإذا جاء الأداء بخسهم أجورهم، وكان يتحين النُّهزة ليشتري البضائع بالثمن البخس، ويبيعها بالثمن الغالي، وكان مصدر قوته هو توفره على شبكة كبيرة من الحمير تنتقل بين الأسواق المحيطة بأليلي. يحمل مختلف العَروض من خزف، وخمرة، وزيت، وقمح، وجلود، وفاكهة مجففة وينقلها من مكان لآخر.

وقد قدّرت أني إذ أخرج من المربض لسوف أرى العالم وأستنشق عبير الحرية وأنسى هذا الإصر الذي يغلُّني وهو وضعي الحيواني. أفلا نشترك والإنسان في أشياء عدة؟ بل أليس الإنسان حيوانا من نوع خاص. فما يميزه عن الحيوان هو التفكير، وقلة من الناس هي التي تفكر، والذي يجعل الإنسان إنسانا هو تعاليه عن مصالحه ومواساة الآخرين والتضامن معهم، وغالبية بني الإنسان لا يفكرون إلا في مصالحهم، ولا يواسون بني جلدتهم، ولعلي إن كنت حيوان المظهر، فكثير من بين الإنسان حيوانيو المخبر.. قدرت ذلك، ولكني نسيت شيئا هو تقييم الآخر لي. فأنا حمار ككل الحمير لا أتميز عنها بشيء، وهل من المطلوب من حمار أن يفكر؟ ما يطلب من الحمار هو الجلَد، وتحمل المشاق بلا تأفف، أما إن هو فكر، فقد يرى في وضعه ظلما، وقد يثور عليه، والخيرة ألا يفكر الحمير، وإن وُجد بينها ما تفكر، فيُستحسن أن تُبتلى حتى تندثر نهائيا.

كنت قد هَزَلْتُ جراء الحبس والمضايقة التي كانت تمارسها علي البقرة، ثم التنكيل الذي تعرضت له يوم أن

نهقت أندد بفرية نعيي، وكان علي أن أحمل الأثقال، ولم يسبق لي أن فعلت، ولم يعاملني خدم الملاّك بالرفق، ولا أخذوا حالتي بعين الاعتبار، ولذلك حملت أوزارا من الأثقال إلى سوق بعيدة من أليلي تدعى گارما تجتمع كل أسبوع . وما أن فَصَل الموكب محملا بالأثقال منذ الفجر حتى تعثرت قوائمي في طريق صخرية. ثم صعدنا مرتفعا وعرا، فاختل توازن ما أحمل، فأخذت أتمايل خشية أن يسقط ما أحمله، ولم أشعر إلا والعصا تنزل علي، وقد سوّى الحمّال الحمل وظل متربصا يضربني في كل لحظة وقد لاحظ ضعف نشاطي.

ولم أبلغ ساحة السوق إلا بعد لأي، ثم أُفرغنا من حمولتنا، وقدّرت أني سأستريح، ولكن ما عشته في المربض المحاذي للسوق كان شيئا فظيعا، كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، واشتد القيظ، ولم يُقدّم لنا كلأ ولا ماء، ولم يُنزع عني بردعتي، ثم تكدست الحيوانات جميعها، فأخذت تدفع عنها ما اقترب منها بالركل عسى أن تظفر بحيز تستريح فيه، وزاد من ذلك جحافل الذباب التي أقبلت من كل حدب وصوب ومنعتنا النوم، وحدث أثناء ذلك شيء مريع لم أودَّ

الحديث عنه، ذلك أن أتانا أخذت تتحرش بي وتراودني عن نفسي، وتستثير غريزتي بشتى أنواع الإغراء، وقد أشحتُ عنها، فلم يزدها ذلك إلا إصرارا، وقد فكرت في الأمر، وكيف لي أن أنزو على أتان وأنا لست من الحمير ولو أن شكلي من الحمير، وماذا لو وضعت فيها بذرتي أتكون من الإنسان أم من الحمير، أم عوان بينهما، وكيف تعيش ذريتي بين الحمير ولها جانب من الإنسان ورثَتـه مني أو سترثه مني، وهل أقبل أن تلظى مثلما ألظى، لأن سبب معاناتي مرده قدرتي على التفكير، لذلك أعرضت عنها، ولكن حدث ما لم أُقدّر، ذلك أن عضوي انتصب انتصابا شديدا، ولعل الأتان أدركت ذلك، أو لعل رائحتها التي تبعثها إفرازاتها قد حملت عضوي على الانتصاب، وقد أهمّني الأمر، وفكرت للحظة أن أركبها، حتى إذا قضيت وطري أو كدت لم أقذفها. وكيف لي ذلك إذا أعضل عضوي في فرجها فغصَّ به، ولم أشعر إلا وأنا أركبها، وعضوي يتأرجح أعلى وأسفل يبحث عن فرجها وقد منعته حبال البردعة، وما كدت أعتليها حتى عضني حمار من رقبتي بقوة وسحبني

عن الأتان المتربصة بي ثم ركلني ركلة كادت أن تصيب عينيّ لو لم أرفع رأسي، وأمسك الأتان من رقبتها، وكان يبدو أنها لا تريده، وأنها تفضلني عليه. كان غريمي قويا ووظف قوته لنيل مبتغاه، ولكن الأتان حاولت أن تتخلص منه، فالتصق بها التصاقا، تركض وهو من فوقها يركض من قدميه الخلفيتين، حتى أحكم قبضتها، فإذا التقى بصرها ببصري عاتبتني عتابا شديدا.

كان شيء يعوزني في سيرتي الحيوانية، ذلك أني لم أكن أستطيع التواصل مع الحمير. كنت أفهم قول الإنسان، مما تعلمته من سيرتي الإنسانية، ولكني لا أستطيع الرد. كانت الحمير تتواصل فيما بينها، وكانت تحدثني وأنا لا أفقه حديثها، وقد جرّ ذلك علي كثيرا من الويلات، لأن الحمير اعتبرت ذلك اعتدادا وغطرسة.

وعُدنا من السوق محملين بأثقال أخرى ننقلها إلى أليلي، وكان ما شَدَهَ الحمالين منظر عضوي الذي لم يخمد وظل منتصبا لأني لم أطفيء لوعتي. وقد تندروا بذلك،

وضربني بعضهم شديد الضرب لكي يذوي أو يغور، وكيف لي التحكم في عضوي، فلم أكن أتحكم فيه وأنا إنسان فكيف وقد صرت حمارا؟ وقد سمعت مالكي يشتكي مني لأني كسول لا أقوى على حمل الأثقال ولأن ذهني مصروف للاستمتاع بالأتان، وأنه لذلك عازم أن يخصيني بأن يشوي بالحديد خصيتي عند الإسكافي لتنطفيء حرارتي وتزداد قوتي الجسدية فلا أفكر في شيء سوى حمل الأثقال. ولحسن الحظ أني لم أُضِعْ لغة الإنسان في هذا المسخ الذي حاق بي، إذ لفعل بي بنو الإنسان الأفاعيل. وعزمت أن أتعلم لغة الحمير. ومن يدري، فلعلها أن تفيد.

ظللت ليلتي تلك أتفكر فيما ينتظرني من خصي، وما تفيدني فحولتي مع الأتان والدواب؟ فسواء عليَّ أأبقيتها أم أضعتها، بل هي لو بقيتْ عرّضتني للنُّكر والفضيحة والخزي المبين، ولكني كنت أخبّيء في نفسي أملا أن أعود سيرتي الأولى، وإني لذلك لسوف أحتاج عضوي لأُحِبَّ وأعشق، ومع أني لم أكن أرى كيف يمكن أن يحدث ذلك، ولكن هذا الأمل ،على ضآلته، هو ما منعني أن أغور في حياة الحيوانية كلية، وهو ما أحنق كثيرا من بني الإنسان ضدي، إذ تبينوا أني لم أكن حمارا كامل الأوصاف.

لذلك ما هجع الحمير في أرباض أليلي بعد يوم من العناء حتى تسللتُ في غفلة من العسس هربا من الخصي. وكانت الليلة مظلمة، فسِرت جنوب المدينة حيث تقل الحركة، وغذذت السير كَي لا يتاح للعسس أن يدركوني. وكان ما أخشى هو الكلاب، وكان يبلغني نباحها، ولذلك

كنت أُسرع حين ينقطع وأقصد في السير حين يشتد، ثم صعدت ربوة عالية، حتى إذا لاح الفجرُ وقعت على أرض خصبة تتخللها العيون ويكثر فيها شجر الزيتون، ويعبرها واد ينساب منه نهر صغير ذو ماء عذب نمير، وأكببت لأستريح، فنهلت من ماء النهر، وقضمت بعضا من عشب، وشيئا من النعناع، ثم غلبني التعب وتغشّاني النوم.

وبينما أنا في أحلام لذيذة تحيل إلى مرحلتي الإنسانية إذا أنا أسمع جلبة، فأهُبُّ مذعورا، وإذا أمامي جحافل من القوم عليهم لباس من جلد، يحملون رماحا ويرقصون بأرجلهم، وأجَلْتُ بصري، فلم أجد عليهم آيات التمدن لا في لباسهم، ولا في شؤونهم، ، ثم حاولت أن أستمع للسانهم فلم يكن اللسان اللاتيني ولا كان اللسان الأمازيغي، وما أن تبينوا صحوي حتى ازدادوا حَمِيَّةً، وقد قدّرت أول الأمر أنهم يريدون بي سوءا، ولكنهم لم يتجرؤوا علي، بل كانوا يتفحصون حركاتي، فإذا أدرت رأسي ضجّوا في الصخب، وإذا أغمضت عينيَّ خفوا، ولم أدرِ كيف التصرف مع هؤلاء، وهل هم من الأصدقاء أم من الأعداء .وكانت نسوتهم في

الجانب المقابل للرجال، وكانت صدروهن عارية، وكن يزمزمن بأذكار ودعوات، وأدركت أن هؤلاء من البرابرة الذين تسللوا من الليمس وأقاموا مستوطنة لهم في غفلة من جند روما، وتبينت أنهم لن يمسوني بأذى.

فوقفت على قوائمي وارتجفت أنفض الغبار، وما هي إلا لحظة حتى رفعوا رماحهم تعبيرا عن الغبطة، وارتفعت أصوات نسائهم جذلى، وتقدّم إليّ شيخ وقور حتى إذا اقترب مني انحنى إجلالا، ثم عاد القهقرى دون أن يُوَلّي الأدبار. وساد الصمت، ثم وضعوا قبالتي لبنا وتينا مجففا، فنقعت من اللبن وأكلت من التين، فصرخوا فرحين، وتبادلوا النظر بينهم مطمئنين، وفهمت من هؤلاء أنهم يعبدون الحمير، وأني أصبحت معبودهم، وعلمت بعدها أن كان لهم حمار يعبدونه مات، فظلوا بغير معبود يعبدونه، وأفتى لهم كبيرهم أن الأقدار لسوف تبعث لهم بحمار ينالهم منه خير عميم. لذلك عمتهم الفرحة وهم يرونني أَحُلُّ برحابهم، ثم تقدّم شيخهم فتبعته، وأفسح أصحاب الرماح السبيل حتى إذا تقدمت تخلّفوا وهم يرفعون الرماح إلى السماء ثم

ينزلونها، وخرج جمع غفير من ساكنة هؤلاء القوم من كل الشرائح ينظرون إلى معبودهم الجديد، ثم إنهم أخذوني إلى كهف محاذ إلى ما كانوا يتخذونه من سكن في أكوام من التبن والخشب، وعينوا شخصا يقوم بشؤوني يدرك لسان الحمير. فدخلت الكهف، واستلقيت به لأستريح، ثم أتى الشخص وانحنى انحناءات ثلاثة، وأفهمني، إن كنت فهمت، أنه رهن إشارتي. وأفهمته بإشارة أني أريد أن أنام. وخلّى سبيلي، وسمعت من الكهف الذي أقيم به مَرَج قرية وجدت معبودها وهي تستبشر لذلك. وأدركت أن خطر خصيي قد تبدد، وأن حياة جديدة تلوح وسط هذا الجمع من البرابرة الذين نصّبوني معبودهم.

واستيقظت عند الغد وقد ذهب عني التعب، ووجدت خادمي على باب الكهف ينتظرني، فتقدم إلي في أدب، وحدثني حديث الحمير، ولم أفقه قوله، ثم حدثني حديث قومه، فلم أدر ما يقول.. ثم أخذ يتكلم ببعض كلمات من الأمازيغية، فأشرت برأسي كناية عن الفهم، وأدرك خادمي أني حمار لا ككل الحمير، وأفهمني أنه سيكتم السر، وحذّرني

أنه إن انكشف أمري فإن البرابرة لن يغفروا لي ذلك، لأنهم في حاجة لمعبود يعبدونه وفق مواصفات وضعوها، فإذا تبينوا أني لا أستجيب لتلك المواصفات ثاروا علي، واقتصوا مني، وأخبرني أنهم شِداد في المغالبة، غِلاظ عند المغضبة، وحدثني عن حياته وكيف أنه اختُطف من أليلي طفلا، ونشأ بين البرابرة من بني سنوس، وجعلوه سادنا لمعبدهم، قيّما على معبودهم، وقد أدرك ما يبتغون، فجاراهم فيما يريدون، وقد وعدني أن يُعلّمني بعضا من لسان الحمير، وإليه الفضل في ما تعلمت من لسانها وطرائقها.

وقد أخرجني ضُحىً في يوم يسمونه زينة إلى ساحة واسعة، ووضع علي إكليلا من الزهور، وأخذ القوم من بني سنوس يرقصون ويمرحون حتى جنّهم الليل ثم انقضوا على ألوان من الأطعمة يأكلون بشراهة، وعلى الخمرة يشربونها شُرب الهيم، ثم اختلط الذكران والإناث، لا يميَّز بين زوج هذا وذاك.. فإذا فرغوا صحبني خادمي في موكب إلى الكهف، وأنبأني أن القوم مسرورون غاية السرور بمقدمي، وأنهم يعتبرون يوم تتويجي طالع يُمن..

وقد وجدت من الأطعمة بالكهف ما لم أُقَدّر، من تبن وشعير وحشيش، بل وفواكه، ثم إن خادمي تقدم نحوي مترددا، فقمصتُ بحافري لكي يتكلم، فسألني باللسان الأمازيغي، إن كنت أُريد أتانا تصحبني في الليل، ولم أجد بدا من أن أرفع شفتيي وأُريَه قواطعي مبتسما لأخبره بأني لست حمارا في حقيقة الأمر ولا أستطيع مباشرة أتان. ثم عاودني إن كنت أريد فتاة تصحبني، فنغَضْت برأسي، وكيف لي أن أستمتع بامرأة، كيف أقبّلها، وكيف أضمها إلي، وكيف نمتزج كلينا. لقد كانت محنتي مزيجا من أشكال عدة من العذاب، فأنا حمار أفكر، وأنا إنسان لا ينطق، وأنا حمار لا أستطيع إتيان الأتان، وأنا إنسان لا أحلم بمعانقة النساء ومباشرتهن.

ولقد تفكرت ليلتي في هذا العذاب الذي حاق بي. كنت بالكهف في سَعة من أمري، فلا بقرةً تزاحمني الكلأ، ولا كلباً يتهجمني، ولا ديكا يزعجني، ولا ذباباً يقلق راحتي، ومع ذلك لم أنم. لقد فررت من الخصي لأقع في الأسر، في أسر من نعيم. ولم أشعر حتى سالت دمعة من عيني..

سايرتُ البرابرة فيما يبتغون، وحدث بيني وبين خادمي تواطؤ كبير، وقد تعلمت لغة الحمير في سرعة مذهلة، لأنها تعتمد على التعبير عن الحاجات الأولى أو ردود الأفعال. يحتاج الحمار إلى الأكل فينهق بطريقة معينة، أو إلى الشراب فيكون نهيقا مُعبّرا عن العطش، يريد أن يأتي أتانا فينهق نهيقا خفيتا، فإذا برّحت به الرغبة نهق نهيقا متصلا. ثم إذا هو توصل بنهيق يفيد الأمر، أأتمر من دون أن يجادل أو يفكر. ومن حسنات لغة الحمير أنها تعدم التفكير ولا تتوفر على تلك الشِّيات التي تعرفها لغـة الإنسان ما بين الأحاسيس والأفكار كما في الألوان ما بين الأسود والأبيض. فلغة الحمير لا تعرف التمييز ولا الشك وإنما تقوم على أحكام قطعية.. ثم هناك حركات معينة للأذنين والشفتين والذنَب والقوائم وكلها تحمل إشارة وتفيد معنى

أو معاني، وقد راجعت خادمي إن كان يجوز أن أُدخل على لغة الحمير بعض الجِدَّة، فتتضمنَ بعضا من الفكر، وشيئا من الرأي، وقد أخبرته أن وضعي في منزلة بين المنزلتين بين بني الإنسان وبين الحمير يؤهلني لذلك. ولسوف يحدث من ذلك خير كبير يتيح للحمير أن تفكر بعض الشيء، ولكن خادمي صدّني عن ذلك، وحذّرني مغبته، وأنبأني شيئا لم أُقَدّره، وهي أن شيخ الجماعة لا يؤمن بشيء مما تؤمن به جماعة بني سنوس ولا هو يعتبرني صاحب كرامة أو بركة، ولكنه يظهر الإيمان بما تؤمن به الجماعة، والجماعة درجت على ذلك منذ سالف الأحقاب، وهو محتاج لذلك لأنه به يتحكم في رقاب الجماعة، فهي التي تشتغل لصالحه وهو المستفرد بخيراتها وأموالها وبنيها ونسوتها.

وكان شأن تلك الجماعة غريبا حقا لم أر له ضريبا فيما شاهدت في أسفاري كانت فئة قليلة تستأثر بالأمر، ومن أجل ذلك تفسر سير الأمور بظواهر غير طبيعية، فتزعم أن توليتها للأمر أمر أرادته السماء، وأن من لم يرضخ لذلك تعرض لغضبها، وأن ما بينها وبين السماء وسيط، هو من

جنس الحمير تعبده وتتخذه زلفى، وكانت الغالبية من ساكنة تلك الجماعة تشتغل في أشغال يدوية بسيطة، تعيش بالقنص، وتصنع الأدوات البسيطة التي تحتاج، وتعيش في عزلة عن العوالم المحيطة بها، وتنشر أن تلك العوالم شر كلها، فتثلبها وتَحْذَرها وتُحَذِّر منها وتردد قصصا غريبة عنها، أغلبها إن لم يكن كلها موضوع. وكان يكفي الجماعة أن تُعمل بعض الفكر لتتعهد أرضها، وتبيع ما يَفْضُل عنها، ولكنها لم تكن تريد ذلك. وقد حاولتُ أن أصرفها للعمل، أو قل إلى تغيير أسلوب العمل، فرضِيَتِ الدَّهْماء ولكن العِلية من القوم غضبوا وحدّثوا الخادم في ذلك، فأخبرني بما حدثوه به ونصحني أن أُبقي الأمر على ما كان، بل أَسرّ لي بشيء لم أتوقعه جعلني أتملى طويلا، وهي أن بعضا من علية الجماعة يعلمون أني لست حمارا كامل الأوصاف، وإنما أنا إنسان مُسخ حمارا، فإذا علمت الدهماء من البرابرة بأمري مزقتني شر ممزق، والخيرة أن أتصرف كحمار وَفق ما تريده الصفوة من الجماعة. وهكذا دأبوا على أن يخرجوني من الكهف الذي أقيم به ويطوفوا بي في مكان معين إن أقاموا به حفلا، ثم

يحُنون رؤوسهم تقربا وتعبدا، أو يدعونني لحفلات علية قومهم الماجنة لكي أباركها، أو حين يقتنصون قنصا، أو في نتاج الزرع حينما يوزعونه بينهم، ولم يكن ليُجْروه وَفق قواعد العدل والإنصاف، فكان أن أحضر ذلك وأتحمل وزر ما يفعلون، ثم يعيدونني إلى الكهف.

ولقد مللت ذلك وضاق بي الأمر. وحذّرني الخادم الذي كان يعطف علي، ونصحني بالإئتمار بما تريده الجماعة. وأي وضع أفضل، أن أكون حمارا أتقلب في النعيم مع جماعة آشرة، أم حمارا وسط قوم متحضرين ولكنه يعدم الرزق؟ فسواء أبَقِيتُ هناك وسط البرابـرة أم رحلت إلى أورْبـة URBI ، موطن التمدن، فسأظل دوما حمـارا..

وحدث مرة أن استيقظت بالكهف الذي أقيم به على صخب وجلبة. ونهقت نهقة خفيفة، فحضر الخادم، وسألته جلية الأمر، فأخبرني أن ساكنة الجماعة اشتد عليها الضُّر لأن السماء جفّت. ولقد زممت شفتي ثم مططتهما لأقول له، وما شأني والسماء إن جفت أو أمطرت، وأخبرني ألا مندوحة

من الاستجابة لدعواهم، ثم حرّكت أذني في لغة الحمير لأقول له كيف لي أن أُنزل الغيث، فردّ أن العادة جرت بذلك، وحرّكت ذنَبي لأسأله، وماذا إذا لم ينزل المطر؟ فرد أن المطر سوف ينزل آجلا أم عاجلا ، فإن هو لم يتأخر اعتُبر الأمر بركة من بركاتي، وإن هو تأخر، فلسوف ترى الجماعة في الأمر سرا مكنونا يخفي خيرا عظيما.

وهكذا أخرجوني من الكهف وقد وضعوا غطاء أبيض على ظهري، والجموع ترفع قصبا عليه لباس نسوة، وهم يصرخون بمعبودة الخصب تاغونجا، وأنا أحرك رأسي ذات اليمين وذات الشمال تخشعا، وساكنة بني سنوس تمزج بين البكاء والصراخ، وأدركت أن تلك الحركات تريحها وتدخل الطمأنينة على قلوبها.

وكان من الأشياء الطريفة التي عشتها مع جماعة بني سنوس أنهم كانوا يحجون كل سنة لمكان يتواعدون للالتقاء حوله، ويتهيؤون لذلك ويوفرون الأموال من أجله، شريفهم ووضيعهم، وكان علي أن أتقدم موكب حجيجهم

وسط الطبول والمزامير مسافة نصف يوم، حتى إذا بلغ الجمع موضعه ضربوا الخيام ثم أخذوا في الأكل والشراب، وأكثروا من الذبائح، وزاروا هناك قبر جد يتفقون جميعهم على أنه لم يتزوج، وأنه لم يُخلّف، ومنهم من يزعم الانتساب إليه رغم ذلك، ويفاخر به، ومنهم من يتبرك بـه من أجل ذلك، وقد وجدت العنت الشديد في فهم الانحدار من أرومة لم يُخلّف صاحبها. وكان علي أن أتقدم الطائفين، وأن أحضر أعطياتهم، وأبارك صلواتهم، وقد ابتهج بنو سنوس لما وجدوا فيّ من انصياع، إكراما لجدهم ومحبة لذويهم. وكيف لي أن أفعل خلاف ذلك؟ وكيف لحمار أن يدرك؟ وهم لا يميزون بين الحمير. حتى إذا كان المساء شاهـدت شيئا عجبا، فقد تحللوا من وقارهم وأخذوا يضربون الدفوف وهم يطوفون بمرقد جدهم، ثم شربوا الخمرة حتى عبثت برؤوسهم، وتحللوا من كل الضوابط، واختلط الرجال بالنساء، واختلط الرجال بالرجال، واختلطت النساء بالنساء.. وبلغ من النساء من أردن التبرك بعضوي، وأردن لمسه ومسحه بالزيت، وقد عرض علي خادمي ذلك

فأبيت.. ثم إني تعللت بألم في الأمعاء وقمصت بقائمتي الأمامية للإفادة بالانسحاب، فأخذوني إلى كهف، وأفاضوا علي من الحشيش والتبن والشعير، وانصرفوا إلى مجونهم الذي كان يبلغني لغطه.

ثم هجعتُ للحظة، وإذا أنا أسمع صراخا متصلا، فأنفر من الكهف وأنقر بقائمتي فيحضر خادمي، فيخبرني أن خليلة لواحد من الحجيج كانت هي وصاحبها في لحظة حميمية وقد عبثت بهما الخمرة، وكانا على شُرْف جُرف فانزلقت المرأة وارتطمت من عل الجُرف، وماتت لحينها. وحضر زوجها وابتهج أيما ابتهاج لوفاة زوجته في حضرة الولي، وعدّها مكرمة. وقد غضبت أنا لذلك غضبا شديدا، وتركت القبيل في لهوهم ومجونهم وعدت أدراجي إلى حيث أقيم عادة، بلا موكب ولا طقوس، وقد أوغر ذلك نفوس بني سنوس، ورأوا أني لم أَرْعَ حرمة جدهم، ولم أحترم طقوسهم. وكان من علية بين سنوس من يرتاب مني، فانتقل ذلك إلى الدهماء، وقد شك بعضهم في بركاتي، إذ لو كنت صاحب بركة مثلما زعموا لما شحت السماء.

أقبل الصيف، وكان النتاج هزيلا، وارتأى القوم من بين سنوس أن يبعثوني وسط جمع من كبرائهم إلى مكان له حرمة يتعبدون فيه، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في المُلِمّات، لأن المكان يوجد في مرتفعات وعرة، ولا سبيل إليه سوى المرور بقبيلة بني ييس، وهم عدو لبني سنوس. وكان بنو ييس يتخذون معبودهم من الخيل ويكرهون الحمير كراهة شديدة، ولا يطيقون لقب الحمير وكل ما يأتي من الحمير، ويتطيرون إن رأى واحد منهم حمارا أو حتى سمع كلمة حمار. وكان بنو ييس رغم عداوتهم الكبيرة لبني سنوس يعظّمون ذلك المكان، ويعتبرون أنفسهم أولى به من بين سنوس، لذلك كانت مجازفة كبيرة أن نقصد المعبد، وقد تدارس علية بني سنوس الأمر وقرروا أن يبعثوا وفدا منهم إلى المعبد ليُرفع عنهم الضُّر، وتُكشف الغُمُّة، وتضاربوا

أيبعثونني أم لا، وانتهوا أنه لا يحسن الذهاب إلى المعبد بدون معبودهم الحمار، ولو فعلوا لهزأ بهم بنو ييس، واعتبروا ذلك منهم انخذالا وخزيا، وتقدمتُ الموكب لمسيرة يوم كامل في طريق وعرة، تتخللها أشجار كثيفة. وحدث ما منه كنا نجزع إذ اعترضت كتيبة من بني ييس موكبنا واعتقلتنا جميعًا. ولم يَرْعَوا لي حرمة، إذ ما لبثوا أن انهالوا علي ضربا، وقد أحفظ ذلك القوم من بني سنوس فأخذ يبكون أن مس بنو ييس مُقَدَّسهم، وانبرى بعضهم يدافع عن الحرمات فنشب القتال بين الجمعين وقُتل من بني سنوس رجلان، فهدأ جزع الوفد، كأنما كان يكفي أن يقدّموا قربان الدم لتهدأ حُرقتهم، وتَمَّ سَوْقنا إلى مستقر بني ييس، وتقدم شخص من بني ييس وهو يعدو مخبرا قبيلته بالأمر، ومحذرا إياها منظر الحمار، فأَخْلَوا السبيل حتى بلغنا ساحة خلاء، وكنت أرمق من طَرْف خفي فأرى الناس قد اختبؤوا فوق السطوح أو وراء الأشجار لينظروا إلى الحمار كما لو هم ينظرون لشيء عجاب. ورأيت من بنيانهم ولباسهم أنهم لا يختلفون عن بني سنوس. وقد أخذوني إلى سجن وفصلوني

عن القوم من بني سنوس الذين لم أعلم من أمرهم شيئا. ولعلهم أن يكونوا احتجزوهم كما يفعل بنو سنوس مع بني ييس، ومنعوني الكلأ إلا من بعض العُشب، وشددوا علي الحراسة.

وقد أجمعوا أمرهم، وانتهوا إلى أن يعرضوني في الساحة لكي يرشقونني بالحجارة على مرأى من معبودتهم من الفرس. وقد دامت اجتماعاتهم طويلا ليحددوا طقوس الرجم، ولكي ينال كل واحد منهم حقه من بركاته وعدّوا لكل واحد عددا من الحَصَى لا أذكرها وحجمها كي ينال كل واحد حقه من شرف الرجم. كانوا يتهيؤون ليوم عظيم.

وأتوني ذات صباح ووضعوا علي ربقة، ثم تم اقتيادي إلى الساحة وكانت مَلْئ بالناس، وكان لباسهم كلباس بني سنوس، وطرائقهم طرائق البرابرة مثل بني سنوس تماما. وقد اهتز الجمع لمنظري وارتفع الصراخ، وهدد كثيرون بنهشي لولا أن الحرس صدّهم. كانوا يصرخون في شأن هذا الحمار الذي هو أصل بلواهم، ومصدر شكواهم، هو سبب

ما يعانون من ضُرّ وما يلظون به من حرمان. هكذا لُقنوا، وعلى ذلك درجوا، وبالأمس كنت معبودا لدى قوم لا يختلفون عن هؤلاء، وأنا اليوم سبب كل رزية، ومصدر كل بلاء، وموضع كل موجدة. ألا ما أظلم الإنسان وما أعماه عن الحق، فهو لا يحكم إلا بالهوى، عدا فئة قليلة، وشأن هذه الفئة أن تُبتلى وتُسام الخسف.

ثم أتوا بالفرس يجرّونها بحبل مُذَهَّب، فاهتز الجمع بالهتاف، وكان منهم من غلبه الوَجْدُ حتى غاب عن الوعي، وكانت الفرس حرونا لا تستقر، تضرب بقوائمها ولا تحسن شيئا سوى الركل..فوضعوها بجانبي لكي يتأتى للجمع أن يرجمني، ثم أن يقف بعدها أمام الفرس ليتبرك بها.

كيف لي أن أواجه هذا الوضع؟ هل بالمنطق الإنساني؟ وأي منطق هنا؟ أن أُنْصَب كبش فداء لأمور لم أجترحها، وهل من المنطق أن أُرجم؟ وهل أتيح لي أن أدافع عن نفسي كي أتصرف بمنطق الإنسان؟ أرادوا كلهم أن يمحقونني دون أن يُعملوا عقلهم لأن قيل لهم إني مصدر البلاء ورددوا

ذلك حتى بُحّت حناجرهم وجفّت ألسنتهم وغاضت عقولهم؟ كان لا بد من منطق حيواني لأخرج من هذه الورطة، ولذلك ما اعتلى كبيرهم على منصة ليعطي انطلاقة الحفل، حفل الرجم، حتى أطلقت العنان لعضوي فانتصب، ثم نفرت من مكاني ونزوت على الفرس، وأحكمت قبضتها بعضة في العنق. ولحسن الحظ أنها استسلمت للأمر واستطابت فعلي، ولعل حِرانها وميلها للركل راجع إلى حرمانها. فأُسقط في أيدي الجمع. وكيف يرجمون ويتبركون بما اختلط؟ وأين الخير هنا من الشر؟ وكان من الجمع من لج في الضحك، وكان فيهم من رأى في ذلك آية فغلبه الوجد، وأخذ يجأر بما هو صلاة في عرفهم وعبادة. فلما قضيت وطري، استدارت الفرس مستكينة، ثم استزادتني الضراب، فأجمعت قواي وعلوتها دونما حاجة لأعضها، واستطلت الجماع حتى إن بلغت مرامي، ركنتِ الفرس إلى الأرض، وقد هُدّت وذهب عنها شموسها. وكانت علية بني ييس تفكر وتدبر في كيفية التصدي لهذه النازلة، وقد انتهوا إلى أن الخير والشر اجتمعا من خلال عملية النَّزْو،

وأنهم لن يستطيعوا أن يقطعوا بأمر حتى تضع الفرس ما ببطنها. ثم أعادوني إلى محبسي، وغيروا من تعاملهم معي لأني أضحيت أرتبط ومعبودتهم برباط مقدس، فأوسعوا لي في الكلأ، وسمحوا لي بالنزهة، واستأنس بي القوم وقد كانوا يحادّونني. وكان يلزمهم، إرضاء لمعبودتهم، أن يأتوا بها لأختلي بها، وإن طال عليها الأمد نفرت وشمست.

لولا المنطق الحيواني لكان لي مآل آخر. لكانوا نكّلوا بي، ولربما قتلوني.

وقد علمت من أمور بني ييس أشياء لا تختلف عما قدّرت لأول وهلة، فلسانهم لسان بني سنوس، وأغلب الظن أنهم يتحدرون من أرومة واحدة، وطبائعهم متماثلة، ولهم احتفالات متشابهة، وهو يحجون إلى نفس المعبد مرة في السنة، شهرا بعد أن يفرغ منه بنو سنوس. وتحكمهم أقلية لا تريد لهم خيرا وتستأثر كما لدي بني سنوس بالخيرات، ولا تؤمن بشيء اسمه بركات الفرس، وإنما هي محتاجة لذلك لأن الطغام تؤمن به. والفئة الحاكمة من بني ييس

محتاجة أن تَنْصِب بني سنوس عدوا، مثلما أن العلية من قوم بين سنوس محتاجون أن يجعلوا بني ييس مصدر كل شر، وهم لو وضعوا خلافاتهم جانبا لصفا لهم الأمر، وتحسنت أحوالهم، وعاد إليهم حكم موريتانيا، ولعل قوة الرومان راجعة إلى اختلافهم، وهي لذلك تؤلب هذا ضد ذاك.

وقد عَلِمْتُ من حارسي أنهم لم يحسموا في شأني، وأن منهم من التمس الفِدْية من بني سنوس، وقد أضحى هذا الرأي ضعيفا منذ اقترنت بالفرس وأضحى يربطني وإياها رابط حرمة، ولذلك أرجؤوا أمر البت إلى أن تضع الفرس، وحَدَثَتْ لهم أشياء أفسدت عليهم أمرهم، فالفرس لم تعد منطاعة لما يقومون بها من طقوس، فهي تنفر دوما وتبتغي الإختلاء بي. وقد أوصى البعض بالتحول إلى عبادة الحمير، أو على الأصح عبادتي، ولكنهم جوبهوا برفض شديد، لأنه مخالف لما تواتر من أمر جماعتهم، وهم لو فعلوا لاعتبر بنو سنوس ذلك نصرا لهم، ثم إن اسم كل قبيلة مشتق من المعبود الذي تدين به، فأسنوس هو اسم الحمار باللاتينية والأمازيغية على السواء، وييس، هو اسم الخيل، ويشترك

في ذلك اللسان الأمازيغي واللاتيني. ومنهم من ذهب أبعد من ذلك، قتلي والتخلص مني، ولكنهم خَشُوا تبعات فعل لا تُدْرَك مآتيه، وكيف يكون رد فعل الساكنة من هذا الذي أدخل البهجة على معبودتهم؟

وُشدِّدت عليّ الحراسة، والواقع أن حالي لم يكن أسوأ مما كان عليه عند بني سنوس. لم أعد أُحاط بأبهة، ولكني كنت متحللا من كل مسؤولية، ثم إنه أصبح لي متسع من الوقت للتفكير، وقد أدركت أن كثيرا من تصرفات بني الإنسان تغلب عليها الطبائع الحيوانية، فهم يحبون الغلب، ويميلون إلى المتع، وينفرون من التفكير، وهم يُغلّفون نزواتهم بغلاف إنساني نبيل. ورأيت أن لا فرق بين البداوة والتمدن في حقيقة الأمر إلا من حيث الدرجة، فمصدر التمدن هم البدو حين تتاح لهم ظروف تاريخية معينة، وهم بتعبير آخر، بمثابة المادة الخام للنتاج الصقيل.

ثم إن موعد الحج اقترب، فهيأ بنو يبس أمرهم وقدّموا فرسهم، ولكن الفرس ما بلغت الحُرُم حتى نفرت عائدة

أدراجها إلى حيث محبسي طالبة رفقتي. وقد أشكل الأمر على بني ييس، فكيف لهم أن يجمعوا بين فرس وحمار في طقوس عبادة؟ وحملوها قسرا وهي نافرة. ولم تظهر علامات الحمل على الفرس، واختلطت شؤون العبادة عندهم، وأوفدوا مبعوثا إلى بني سنوس ليخبروهم أنهم قرروا الإفراج عني، ولكن بني سنوس لم يعيروا العرض أهمية لأنهم اتخذوا أثناء ذلك حمارا آخر يعبدونه ولم يعودوا في حاجة إلي.

وأخيرا قرّ قرار بني ييس أن يتخلصوا مني، فأخذوني في جنح الظلام، حتى باعدوا بيني وبين مساكنهم وألقوا بي، وقد تهت في الظلام، وكان ينتهي إلى صهيل الفرس وهي تحن حنينا حزينا.

وقعت على عين دافئة بوادي تتخلله مروج وتعلوه أشجار الصنوبر، وقد رُصَّتِ العين بالحجارة في شكل دائري كما هو الشأن لحمامات الرومان، فغشيتها لأغتسل وأستريح. وأذهب عني دفء المياه المنبجسة من جوف الأرض التعب والوهن أنساني رحلتي عند قوم يعبدون ما اختلقوا، وإذا أنا أسمع صوتا فأفتح عيني فأرى شيخا وقورا يعتمد عصا وهو يعجب من أمري :

- حمار بالعين في الصباح الباكر، هذا طالع يُمن..

كان الشيخ مشرق الوجه، بادي البِشر، ولم يبدُ منه شيء يوحي بالعداء، ثم أضاف :

- عِمْتَ صباحا أيها الحمار، أأثقلت عليك أنت أيضا أعباء الحياة وأصابتك أوضارها؟

ولم أر بُدّا من أخرج من العين.

- لا عليك، هي تتسع لي ولك.. وهي مغتسل لمن يجد من نفسه الحاجة للتطهر من الأوضار، وقليل ما هم.

ثم أخذ يترنم بأغاني تشيد بالحياة، وعجبت أن يصدر ذلك من شيخ.

ثم تقدم إلى العين وانكفأ إلى أن غسل وجهه.. ثم توجه إلي بالحديث :

- سيأتي يوم سأفنى أنا وأنت وتبقى هذه العين، ولا أدري إن هي ستشهد عنا..اقتربْ أيها الرفيق، أحب غُرَّتك هذه البيضاء. حمار فضي. لقب جميل. ألا توافقني الرأي؟ لسوف نخص لقب الحمار الذهبي لشخينا أفولاي، فله الفضل، وسأسميك بالحمار الفضي. أما أنا فيُنادى علي ب أَگ أوْرِير، أي المنتسب إلى الربوة، ويمكن أن تناديني ب أورير، من غير حاجة إلى لقب التجلّة.

واقتربت منه، ثم ربّت على شَعري..

- حمار متوثب، لا شك أنه يحمل جراحا.

خِلْتُ بالرجل خَبَلا .

ثم عاودني بالحديث :

- هل لك أن تصحبني إلى مسكني في الكهف بحضن الجبل؟ لست أملك قصرا، ولا بيتا فخما، وحتى لما كنت بأليلي كنت أسكن بيتا متواضعا.ألك أن تسمع قصتي؟ حكيتها للأشجار وللطيور وللصخور ولا ضير أن أحكيها لك. كل مرة أحكيها أكتشف جانبا منها. الحكي اكتشاف. هيا نمشي كلينا. لن أركبك ما دامت قدماي تحملاني..

ثم أخذ يحكي عن مساره مُدرّسا بأليلي، عارفا للاتينية، متقنا للإغريقية، مالكا ناصية لغة أجداده الأمازيغية..

- توفيت زوجي وكان أولادي قد غادروا البيت، أو إن تُرد صورة مجازية أخذوا يُحَلّقون بأجنحتهم. تاكفاريناس يعيش بقيرطة في نوميديا، وهو يأبى حكم روما. أنا كذلك أرفض حكمها العسكري ومُعَمِّريها وعجرفتهم، ولكني

لا أرفض معارفها، ثم لا أدري إن انفصلنا عن روما ماذا سنفعل؟ وسبارتاكوس، سبارتاكوس، ذهبت عني أخباره مذ استقر بإفريقيا.. سبارتاكوس يريد أن يصوغ العالم على شاكلته، وقد حذّرته مرارا.. الفعل من دون رؤية لا يجدي. هو مندفع. ولكن هي الحياة. وثازيري، ابنتي، بقيت بأليلي. متزوجة من صانع خزف، وهي لا تطرح أسئلة فلسفية..وأنا رُغْتُ إلى هذا المكان في قِنَّة الجبل. قد تسألني ما أصنع؟ لا شيء ذا بال..أعيد قراءة كتب قديمة أجد فيها سلوة، وأسعى أن أترك شهادتي في الحديث للأنواء والصخور والوديان.. أأثقلت عليك؟ ها نحن قد وصلنا. بهذا الكهف أعيش. فيم نحن فيه من حديث، أيها الحمار الفضي؟ آه، كنت مُدرّسا للأطفال، أعلمهم اللاتينية والإغريقية والخطابة ثم ننقل ذلك إلى لساننا الأمازيغي، وبعد أن يشتد عودهم أعلمهم الحساب والمنطق وأهيئهم لتذوق الموسيقى.. الطفولة هي المادة الخام التي يصاغ منها الإنسان. شخصية الطفل تتحدد في سنواته الأولى. إذا كنا نريد خطباء علمنا الأطفال فنون الخطابة منذ نعومة الأظفار، وإن أردنا المنطق سعينا أن

نغرس ذلك في الصبا من خلال حملهم على طرح الأسئلة والاستنتاج الذهني، وإن رمنا اكتشاف علوم الطبيعة علمنا الأطفال حاسة الملاحظة.. الناس تمر على الأشياء دون أن تلاحظ شيئا. الناس تحسب الحقيقة جامدة، تُلَقّن أو تُحفظ.. الحقيقة اكتشاف دائم، هي مدى مطابقة فكرة للواقع.. في مساجلات سقراط، يحسب الناس الحقيقة ما سمعوا أو لُقنوا، فإذا أعملوا عقلهم ألْفوا أن ما يعتقدون ليس الحقيقة. والمعتقدات هي الأفكار العامة التي يرتبط بها مجتمع، ولكنها ليست بالضرورة الأفكار التي يمكن أن يتقدم بها، بل قد تصبح وزرا تصده عن الحركة. المعتقدات تملكنا، والأفكار ملك لنا. أثقلت عليك أيها الحمار الفضي. هو عيب المهنة.. تفضل.. هنا بهذا الكهف أعيش، ليس به باب، وميزته الكبرى هو أني أشرف على أليلي.. تبدو لي المدينة صغيرة من هنا، قضاياها كلها تبدو من هذا الكهف صغيرة.. زوج تشاجر مع زوجه، حاكم يسارع في الحفاظ على امتيازاته، صانع مطالَب أن ينهي سلعته.. هنا من هذا المكان أجيل نظرة شاملة على أليلي. لا أدري ما يعتمل في

كل بيت، ولكني أرى الصورة الكاملة للمدنية، لأورْبة. دعني أضحك. زرت العرّاف أمس، وذبحت ديكا كما تجري بذلك الأعراف، وقد أخبرني أن سيأتي يوم يطلق اسم المدينة، أورْبـة، وهو اسمها باللاتينية، Urbi ، على قبيلة.. سيصبح الجهل علما أو زعما بعلم. ولكنه قال لي أشياء أخرى آلمتني..

لستَ ملزما أيها الحمار الفضي أن تحكي لي قصتك. أتخيل جزءا منها. أرى من هذه الناصية مأساة.احكها متى شئت إن شئت، ولكن لا ترْوِ شيئا تروم منه العبث أو التسلية ..أتُضايقك ثرثرتي؟ الشيوخ يحبون الثرثرة وخاصة حينما يجدون من يصيخ السمع إليهم؟ قال لي العراف إن أقواما سوف يحلون هنا، وسيمسكون روحنا، فنصبح أجسادا بلا روح. حاولت أن أستزيده فاكتفى بقول مبهم. هذا الذي يشغلني أيها الحمار الفضي. أن يأتوا للعيش معنا فمرحى، ولكن أن يسلبوننا روحنـا، فـلا.. الحقيقة أني لا أومن بالعِرافة، ولا بالكِهانة، ولا بلعب القدح ولا بالرجم ولا هذا الذي تجده عند العبرانيين من النبوءة.

أؤمن بالتوليد المعرفي كما عند سقراط. المهم هو السؤال وليس الجواب. والمهم يا رفيقي هو أن تحفظ عني أشياء، أن تنقلها إلى الأجيال المقبلة. من سيروي عني سواك؟ الصخور؟ ربما. الرياح؟ لا أدري.. الرياح لا تضيع شيئا، تبعثر الأشياء، ولكن لا تضيعها، والإنسان يَلُمُّ ما يبعثره الزمن. الإنسان يعيد البناء..ليس مهما أيها الحمار الفضي أن تنقل صورة موريتانيا كما هي اليوم لكي تكون موريتانيا مطابقة لها غدا..ليس لي ولا لمن يأتي بعدي أن نُملي تصورا لموريتانيا بل لتامازغا كلها..ولكن من واجبنا أن نرفض الزيف.. لقد فهمت من قول العرّاف، أنهم يريدون أن يوحوا أنْ لم نكن شيئا مذكورا قبل أن يحُلّوا، وهذا افتئات كبير وبهتان عظيم. يقال بأن التاريخ يكتبه المنتصرون. في الكهف كتاب سالوست عن حروب يوغرثن، ومع ذلك لم يجانف سالوست الحقيقة، ولكن الذين سيأتون سوف يكونون شيئا آخر.. سوف يبنون بنيانا يحجب من كهفي هذا رؤيتي لأليلي وللأشياء كلها . وليس لك أن تثق فيما يزعمون. الناس تتخذ الحمير لتحمل عليها أثقالها وأنا

أحمّلك ما تراءى لي من رُؤى.. عِدني أنك لن تعبث بها، وأنك ستأخذها مأمنها.

أمهلْني لبعض الوقت ريثما أهيىء طعام الغداء. سوف أهيء ماوروزي، وهو طعامنا الذي نقدمه للضيوف، من لحم وبصل وزبيب. أنا أعرف أنك نباتي لا تأكل اللحم.. وبعدئذ لو شئتَ قرأتُ عليك بعضا مما أخطه. الزمن يتقدم وئيدا هنا، وأنا أقطف الحِكَم التي نبتت من عمري، أقطفها كما تُقطف الثمار.. وهذه الثمار أمضت وقتا طويلا لتنبت من الأرض. سقتها الأمطار، وامتحنها الجدب، وزانها دفء الشمس، وداعبتها الريح، قست عليها أحيانا، ثم أخذت تكبر إلى أن استوت، وكلما قست عليها الحياة كلما زان مظهرها ولذ مذاقها وعبق أريجها..لكل ثمرة مذاق، ولكل حكمة معنى. لكل شجرة مسار، ولكل حكمة مسار كذلك..لكل زهرة أريج، ولكل حكمة منظور في الحياة. .

أنا لا أملك شيئا سوى هذه التجربة التي أريدك أن تحملها عني، عزيزي الحمار.

أنِسْتُ بالرجل الحكيم وأَنِس بي. كان مفيدا وكان صادقا. قال لي غداة لقائنا : ارْتَع ما شئت أن ترتع في النهار، ونلتقي أنا وأنت في المساء لنتجاذب الحديث..كان موفور النشاط رغم سنه، يتعهد شؤون كهفه، يذهب إلى العين كل يوم فيغتسل، ويهيّء فطوره، ويقرأ لبعض الوقت، ثم يخرج للطبيعة فيقف عند الأشجار والزهور، وكان يعرف أسماءها باللغات الثلاثة، ثم إذا كان منتصفَ النهار نال بعضا من طعام وقال ليستريح، وبعد أن يستجم يَخْلُص لكتاباته حتى الأصيل فيكُفُّ إذاك، ويتملى الشفق حتى غروب الشمس، فكأنه طقس عبادة يواظب عليه. ثم نلتقي بالكهف وقد أوقد قنديلا فيحكي لي قصص الأطفال، وكان قاصا بارعا، ويروي حكم الأمم ويتلو الأشعار الغنائية والحماسية..وقد يقص علي بعضا من قصص المسرح.. ثم ينظر إلي :

- أتحسبني أهزأ، كلا، فأنا أغرس فيك بعضا من ثقافتنا لكي تحملها، ولعلك أن تقطع الأزمان الطويلة، كما تقطع الدواب المسافات البعيدة لتُسْلم البضاعة لأصحابها.

لم أكن لأقطع على الرجل نظامه، لذلك كنت أسرح في جنبات المرتفع، ألتمس النُّجعة هنا وهناك، وأمرح هنا وهناك، وأتملى فيما يقوله لي الحكيم. وحدث يوما أن التقيت أتانا، فاقتربت مني، ومنذ قصتي مع أتان گارمة أخذت أحتاط من إنـاث الحمير. كانت سوداء الشَّعر، وكانت حدقتا عينيها نجلاوين، وقد حدثتها بلغة الحمير فلم تجب، رفعت أذني اليمني لأسألها ما الذي حملها إلى هناك، فلم تَرُدَّ، وضربت بقائمتي اليسرى لأسألها عن مالكها، وأيقنت أنها لم تفهم عني، وأخذت أشك فيما تعلمته من لغة الحمير، وقدّرت أن خادمي لم يحسن تعليمي، ولعله كان يترضاني لا غير.. وكانت الأتان تقترب مني، لا تقدم على إثارتي بشكل فج مثلما فعلت أتان گارمة وتكتفي بملاصقة جسدها بجسدي وتحاول أن تقرّب شفتيها بشفتي لكي تُقبّلني.. والحقيقة أني تقززت لذلك رغم كل شيء، فالحيوانات لا

تُقبّل بعضها البعض، وتكتفي بقضاء وطرها، فكيف لي أن أُقْبِل على أتان، وكيف لي أن أقبّلها؟ كنت أود أن أقول لها أشياء لو قامت بنا سبل التواصل، والحال أنها لم تكن تفهم عني ولا أفهم عنها. كنت أريد أن أقول لها إني لا أستطيع أن آتي الدواب، ولو أني لظروف خاصة، نزوت على فرس ظفرا بجلدي حينما تهددني أقوام بالقتل. كانت تنتظر ساعة الغروب لكي تتملى غَوْر الشمس في الشفق الأحمر، فيصرفها ذلك عن كل شيء. وحدث ما لم أستطع له ردا، فقد قاربتُ شفتي من شفتيها، ثم ما لبثت أن نزوت عليها، وكان إحساسا غريبا غير ذلك الذي عرفته مع الفرس. كان إحساسا شبيها بإحساس الإنسان، إذ لما قضينا وطرنا، تقابلنا وجعلت رأسي محاذيا لرأسها، وبقينا لذلك زمنا طويلا ذاهِلَيْن عن الزمن. وافترقنا لأنه لم يكن بد من الافتراق وفي نفسي لوعة. نزلتِ المرتفع في اتجاه أليلي، وصعدتُ إلى قنة الجبل حيث كهف الحكيم. وقد نظر إلي نظرة هازئة :

- إنك لتفيض بالحيوية يا حماري الفضي. أتراك تكتم عني شيئا؟ أهو أريج الحب هبّت نسائمه عليك؟ لولا الحب

لما ارتبطنا بالحياة. الحب هو البذرة التي إذ تكبر تمنحنا ما هو جميل في الحياة. تمنحنا التجربة، وتمنحنا الحكمة، وتجعلنا نحب الآخرين ونَقْبَلَهم كما هم. أخشى عواصف هوجاء تهب على هذه الأرجاء فنتطيَّر من الحب، ونقيمَ عليه الموانع. حيثما يكون الحب تزهر الحياة، حيثما تكون الحياة يُشعُّ الحب. حينما ينتفي الحب تنتفي الحياة وتقوم عوضها العداوة والبغضاء.

لزمت مربضي وأنا أنظر إلى ألسنة النيران في موقد أورثه الحكيم متمليا فيما قاله لي، متفكرا في هذه الأتان التي سلبتني لبي.

- لسوف أقرأ عليك بعضا من الإيلاذة، لترى سلطان الحب في النفوس، هو سلطان يرفعنا، ولكنه قد يُطوِّح بنا..

وكنت ذاهلا عن الحكيم وهو يقرأ عليّ الإليلاذة، كنت أفكر في هذه الأتان التي ملكت شغاف نفسي وأخذ قلبي لها يَرِقُّ. وذاد هذا الشعور عني النوم. كنت متحرقا لألقاها. وعند الصباح نفرتُ إلى ذات المكان لعلها أن تأتي..

لم أقضم الكلأ، وكنت أرفع رأسي عسى أن تبدو من منبسط أليلي، حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء، رغت إلى ظل شجرة وقد ران علي اليأس، ولم أجد بدا من النهيق نهيقا متصلا أُعَبِّر فيه عن شوقي لها. ثم عاودت النهيق أناديها، وقد غيّرتُ من نبرته .. وأغمضت عيني كاسف البال. وندّ من نفسي شعور غير الشعور الذي ملكني أول الأمر. هل هان بي الأمر لأعشق أتانا؟ هل طلّقت وضعي الإنساني السابق لأصبح حيوانا كامل الحيوانية؟ هل هو الإعلان عن الإفلاس والانغمار كلية في سلك الحيوانية أنا الذي قدّرت يوما أن أنعتق من جلد الحمار ومهاوي الحيوانية؟ ليتني لم أنهق. لو أتت الأتان فسيكون استجابة لندائي. فماذا إن هي راودتني، أأنزو عليها؟ لو فعلتُ إذن لرسّختُ انتمائي للحيوانية وقطعت الصلة مع أصولي الإنسانية وما أروم من انعتاق من طور الدواب. وجاءت الأتان ونسِيتُ تخرصاتي، وقابلتُ رأسي برأسها، ثم وضعتُ أنفي على أنفها، وأخذنا نلهو حتى غلبتنا الرغبة فاعتليتها، وغمرتني لذة غريبة. أيستوي الحب عند الإنسان والحيوان؟ فليس مهما من

نضاجع، أو ما نضاجع، والذي يهم هو الشعور الذي يربطنا وهذا القرين. حينما نحبه لا يهم شكله. هو ذات الشعور الذي كنت أستشعره مع هيباتا، المرأة التي أحببت في سالف حياتي الإنسانية، وأنا أستشعره مع هذه الأتان؟

أزمعت أن أستضيف الأتان التي أضحت بمثابة زوجي، ولكني خشيت ذلك، وافترقنا افتراقا مؤلما لتعود إلى أليلي، وقد قدّرت أنها تشتغل هناك، وعدت إلى مضيفي الحكيم بكهفه. ولست أدري أتعقبني، أم قرأ ما بخلدي ولكنه بادرني بالقول :

- لا يزعجني أن تأتي بمن تحب - أعرف بأن الصواب باللغة التي ستروي بها عني أن تقول بها تحب، لأن ما لغير العاقل، يمكن أن نحافظ على روحنا حتى لو نسينا لساننا - في المكان سَعَةً لنا جمعا. المكان يتسع للحب. والحب يسع كل فضاء مهما ضاق، والحكمة تسكن كل مكان.

وأتت أتاني عند الغد قبيل الأصيل كما دأبت واختليت بها، ثم دعوتها لكي ترافقني، فلم تفهم عني، ثم تقدّمتها

فتبعتني، وأتينا كهف الحكيم، وأفسح لنا في المجلس، فأوقد لنا النار وبذل لنا الكلأ..ثم أخذ يترنم بأشعار تغني للحب هي من نظمه، ورأيت أن رفيقتي الأتان تبدي الاهتمام.. وقد رأيت من عينيها دمعة تنسكب. ونمنا وجسدي بمحاذاة جسدها، وأيقنت أن طور الحيوانية ليس شرا كله إن سكنته الأحاسيس وارتقت به الحكمة.

وحدث شيء عكّر صفو وصالنا. فقد تبين مالك أتاني غيابها، ولعله أن يكون تعقب أثرها، وأقبل علينا ذات صباح متوعدا الرجل الحكيم، ولم يكن سوى ملاكي القديم، وقد عرفني الوغد، واقتضى من الحكيم ثمنا غاليا، فرد الحكيم دون أن ينسلخ عن وقاره :

- كرامة الحيوان أغلى من أن تُشترى. أنت تزعم أنك تملكهما. أنت تمتلك جسديهما ولم يُستشارا حين بيعا، وقد ملكتَ جسديهما ظلما، ولكنك لن تملك قط روحيهما.

وكان الملاّك مصحوبا بكاتب ضبط ليعاين القضية، وقد كتب محضرا يتهم فيه الحكيم بالسطو على ممتلكات

الغير ويفرض عليه غرامة، لا أذكر كم قطعة سسترس، وقد رفض الحكيم أداءها لأن ليس له مال. إذاك اقتاده الضابط إلى السجن مكتوف اليدين. وقطعت الطريق إلى أليلي وأنا أركل لأنفّر مالكي القديم مني. وسمعته يقول من صهوة حصان يمتطيه :

- تبّا لك من حمار لا يصلح لشيء. سوف أتخلص منك. أنت عبء علي وعبء على المدينة.

اقتيد الحكيم أَگ أَوْرِير إلى السجن في انتظار أن تُجرى محاكمته بتهمة السطو على ملك الغير ورفضه تعويض ما بذمته، وأما الأتان فقد أعيدت للحمال، وتم عرضي للبيع في ساحة السوق. وقد أفاض ملاكي في مزاياي، ومنها خفة ذهني، وفهمي للسان الإنسان. وتعاقب كثير من الزبناء لشرائي، وكان الثمن الذين يقتضيه ملاكي مرتفعا، وأخيرا اشتراني لاعب سيرك ينتقل بين المدن، وقد عرّضني لجملة من الاختبارات وأمرني أن أتقدم فتقدمت، وأن أتخلف ففعلت، وأن أرفع قائمتي الخلفيتين وأمشي عليهما فأتمرت. كنت حريصا أن أنجح فيما طُلب مني لأني خَشِيتُ أن أبقى عند ملاكي القديم الذي سوف يُحمّلني الأثقال، وقد يعتزم خصيي. وكنت مستعدا لكل شيء سوى الخصي. فأي قيمة للحيوان أو الإنسان ألا يبقى منهما سوى صورتهما، ولم

يحملا مادة الحياة، ولم يُخَصّبا. والتخصيب أنواع، وأرقى التخصيب هو ذلك الذي يقيمه الإنسان بعقله ليغير واقعا، والعِنّة أشكال عدة كذلك، وهي كل شكل من أشكال العجز والخنوع والاستسلام.

كان مالكي الجديد لا يُحمّل حيواناته عُسْرا ويأخذهم بالرفق ما داموا يُدِرّون الربح. كان يرضى منهم أن يقوموا بدورهم في الألعاب التي يضطلعون بها، فللسبع أن يقوم بما يطلب به من حركات بهلوانية كفتح فمه، وتهديد الجمهور بزئيره، وللفيل أن يرفع خرطومه، وعلى القرد أن يقوم بحركات مسلية فيقفز من حبل لحبل، وعليّ أن أرقص في خاتمة الحفل وَفق إيقاع معين، وأستجيب لطلب الجمهور، فيطلب مني أن أحرك رأسي فأفعل، وأن أستدير حواليّ فألبي الطلب، فيلُجّون في الضحك، ولو علموا أصولي الإنسانية لأدركوا أن لا فضل لي ولا ميزة فيما كنت أقوم. وكانت هذه الألعاب تحظى باهتمام السلطات، وتوفر لها الرعاية، لأنها تصرف الناس عن شؤونهم، وكانت جزءا من تدبير الشأن العام. وكان منها فقرات مخيفة حينما يطلب

من الإنسان أن ينازل السباع. كان ذلك منظرا مُريعا. فلقد كان بعض المساجين يُعْرضون لمنازلة سباع جائعة، والغريب في الأمر أن الجمهور ينسى أن من ينازل السبعَ إنسان، فيهتفون للنِّزال، ويفرحون للمبارزة، وينسون ما يتخللها من آلام وجراح يلقى فيها الإنسان حتفه غالبا. وقد أيقنت من خلال تجربتي في السيرك أن لدى الإنسان شعورا عدوانيا مستترا. ولم تكن المنازلات التي يسهر عليها منظمو ألعاب الحلبة إلا تعبيرا عن هذا الجانب العدواني. فكان الناس يهتفون ويصرخون لمنظر الدماء والأشلاء. ولقد تفكرت أن المبارزات السياسية هي شكل من المنازلة، تتستر عن الجانب العدواني، وأن الساسة لا يتورعون في استعمال جميع الأساليب حتى الدنيئة منها من أجل القضاء علِى غرمائهم كما يفعل المبارزان في الحلبة. وكما أن الناس يفرحون لألعاب السيرك، وللمبارزات التي تتخللها، فهم لا يرون من السجال السياسي إلا المتعة، ويروقهم فيه القوة، وينتصرون لمن يقضي على غريمه، أيا كانت الوسائل، وأيا كانت الأهداف. أليست السياسة سيركا من نوع خاص؟

بدأنا نشاطنا بأليلي في الخريف. وقد بدا أن المدينة نسيت قصة الاختطاف، اختطاف ثيوزيس وخادمتها حاتبوبت، ومقتل أذربال، - خديمكم ومحدثكم - ثم إن الحاكم أعيد تعيينه، وقد راودتني نفسي أن أمرّ قرب بيت والديّ، ولكن ما عساني أصنع، فأنا لا أستطيع الحديث، وأنا بالنسبة لهما حمار ككل الحمير، ولو استطعت أن أحْمِلهما على فهم أمري لهزآ بي، ولو وثقا بي لتألما، وهما لن يرضيا الاعتراف بأن ابنهما الذي كان مفخرتهما فيما سلف من حياته قد أضحى حمارا.. لذلك أعرضت عن الفكرة.

وغارت أليلي في شؤونها ولا حديث لها إلا عن هذا النصّاب الذي يختطف الحمير في قِنَّة الجبل واستطاعت يقظة المدينة أن تكشف أمره، ولا يُستبعد أن يكون ضمن شبكة خطيرة تتهدد المدينة. تركت المدينة وهي تتأهب لتحاكمه ولتوقع عليه أشد العقوبات لا لاختلاسه فقط، وليس لصلفه وحده ولكن لأنه خارج أسوار المدينة ولن يُحاكَم وفق قوانينها ولكن وفق الأعراف الجارية ضد الأغراب. ألا ما أظلم الإنسان! أليس هذا النصَّاب الذي

تتأهب المدينة لمحاكمته هو حكيمها الذي اعتزل الناس ليشتار من الحياة شهدها ويستخلص من حياته رحيقها؟ أليس هو من ربى أبناءها وعلمهم التفكير والإحساس بالجمال والارتقاء بالإنسان وحبه للآخر؟ تحاكمه وفق قرائن زائفة، لأنه وُجد عنده حماران. وهل تساءلت عما دفع الحمارين للاحتماء به؟ ولو كان للحمير رأي لقدمت شهادتي، ولعل أتاني أن تقدم شهادتها، ولكن لا مكان لنا في منظومة مدينة متحضرة وضعت كل شريحة في قالب، وتنظر إليها من خلال هذا القالب. لم يسبق أن عُرض على واضعي نظام المدينة - أوربة - حالة كحالتي. حالة خارج القوالب كلها، واكتفت أن تنظر إلي مثلما يبدو من خلال شكلي، حمارا ككل الحمير، وليس حيوانا من شأنه أن يحس ويتفكر ويأسى.

وتناءت أليلي وأنا في فرقة السيرك أنتقل من مكان لآخر، وأخذ السير يعسر وقد دخل موسم الأمطار، وكانت عربات الأحصنة تسلك الطريق المعبدة بالحجارة المرصوصة، وكنا جَمْعَ الحيوان نمشي على قارعة الطريق

إلا الأسد فكان يوضع في قفص ويُحمل على عربة. كانت محطتنا بعد النجاح الذي لقيته فرقتنا بأليلي، مدينة صالا. وكانت مدينة صغيرة على مصب نهر كبير. كان جوها كئيبا تغلب عليه الرطوبة، وكان ذلك يؤثر في ساكنتها التي كانت متحفظة، لا تشبه في شيء ساكنة أليلي التي تميل إلى المرح، وكان أغلب ساكنة صالا من صغار الحرفيين، وكان مرفؤها صعب الإبحار لعلو موجه وصخبه..وكان علي أن أصبر على البرد والمطر. وقد قدّرت أن أربط العلاقة مع زملائي من الحيواناتِ الأخرى، ولكن التواصل معها تعذر، فقد ظلت حيواناتِ لا تخرج عن الدور الذي رُوضّت عليه. كان السبع لا يخرج قيد أنملة عن الحركات التي تعلّمها، ولا كان الفيل يستطيع شيئا آخر غير ما درج عليه، أما القرد فكان يكتفي بتقليد ما لُقن. وكان المرء ينبهر وهو يرى حركاتها تلك، ولكن ذلك الانبهار ما يلبث أن يتلاشى حين يرى المرء أن تلك الحيوانات لا تحسن إلا ما عُلمت، وإذا خرجت عنه، عادت إلى طبيعتها الحيوانية، وكان هناك شيء آخر ينسيها مِرانها ويردها إلى طبيعتها الحيوانية وهو

الجوع إن أثقل عليها. وكان صاحب السيرك حريصا أن يطعم حيواناته حتى تظل في قالبها ولا تخرج عنه. كنت أدرك ذلك، وكنت أخشى أن تمتد يد صاحب السيرك إليّ ليقدمني قربانا للسبع.. لم أعد أخشى الخصي، ولكني وأنا أعيش صباح مساء قرب سبع، كنت أخشى أن يغلبه الجوع فيمزقني شر ممزق أو تنالني منه نزوة من النزوات، وأي سبع لا يخلو من النزوات؟

ثم رحلنا إلى بناصا وهي مدينة واسعة على نهر عظيم، وساكنتها أصحاب ذوق وأريحية، وذوو غنى مُتَأَتٍّ من نهرها ومن صناعاتها. وقد تكرر عرضنا بها لثلاث في مُدَرّج واسع يكاد أن يشبهُ مدرج أليلي سعة وجمالا، وحدث ببناصا شيء غريب هو أني التقيت بها حمارا، وقد تقدم نحوي مُحَدّثا إياي بلغة الحمير، ففتح شفتيه ثم منطقهما مرتين يسأل عن عمري فأجبته بثلاث ضربات بقائمتي ففهم عني، وكنت أعني سني، أي ثلاث سنوات من عمري الحماري، وأدركت أن لغتي الحمارية صحيحة، وسألني كم أتان آتي في الأسبوع، محركا ذيله، فلم أُرِدِ الجواب، واستطلت أذنيّ

علامة على الرفض لأن ذلك من حميمية الحيوان. فغضب وأخذ يتندر بي. ثم نهق نهيقا مبحوحا فتحلقت حولي الحمير وأخذت تهزأ بي وترفع من عقيرة نهيقها. كان الحمار حسبما فهمت زعيما لها، وهو يقيس مدى التميز فيما يأكل، وكم مرة ينزو.. لم أستطع الرد لأن ذلك كان يقتضي الانتقال إلى منظومة مغايرة، وهي لم تكن متوفرة في لغـة الحمير، وهذه المنظومة التي تجعل الغاية من الحياة إسباغها معنى يميزها، ولا تكتفي بالحاجات الحيوانية، هذه المنظومة تقتضي مني الكلام وقد تعطل لدي الكلام، وتقتضي شيئا آخر، هو أن يكون مخاطبي ذا بنية ذهنية يستطيع من خلالها أن يدرك الكليات ويرتفع عن الحسيات، لذلك أمسكت. أنغضت برأسي، ونهق الحمار نهيقا متصلا علامة على الانتصار. لقد انتصر بمنطق المنظومة الحمارية، وقد تبينت أن كثيرا من بني الإنسان أنفسهم لا يختلفون عن هذا الحمار الذي حاججني ببناصا، وأنهم يقيسون الحياة فيما يملكون، ويجعلون غايتهم النيل من متعها والظفر بمتاعها. ومن العسير الحديث مع هؤلاء أو السعي في إقناعهم. ومن العسير كذلك الحديث

إلى من يحملون معتقدات، فإما أن تحمل ذات المعتقدات، فتعزز رأي مخاطبك، وإما تخالفه، فيعرض عنك ويرميك بكل شائن ويؤلب عليك صحبه، ولا هو يستطيع أن يرى في الأمـر اختلافا، لأن الاختلاف لا يكون إلا في الفكر، أي فيا نملك..وكانت تلك فكرة الحكيم أَگ أوريـر.. تُـرى أين يكون؟ أَحَكَمَت عليه المـدينة بقوانين تزعم العدل وترسخ الظلم؟

ثم يممنا وجهة ليكسوس، كانت الطريق رخوة تغلب عليها المستنقعات، وقد وجدت العربات عنتا شديدا في الأماكن التي لم تكن الطريق بها مرصوصة. وأُخْرج السبع من قفصه ليمشي رفقتنا وقد أحيطت رقبته بحبل وبمحاذاته القرد، وكان لسبب وغير سبب يضرب القرد بمخلبه، فيأتي القرد مستكينا حتى يقع على الأرض كمن يستجدي عفوه، فيزأر السبع علامة على العفو، ثم نكمل المسير، ويتكرر ذلك، حتى إذا غلب الأمر القرد قفز إلى شجرة واعتزل مُعبرا عن غضبه، إذاك يصاب السبع

بإحباط شديد، فيتوقف عن المشي، ويحرك رأسه يمنة ويسرة تعبيرا عن الأسى، فإذا طال تمرد القرد زأر السبع زئيرا مدويا، ويجد القرد لذة في تعذيب السبع، وقد قدّرت باديء الأمر أن السبع هو الذي يتحكم في القرد، ولكني أيقنت بعدها أن القرد هو الذي يتحكم في السبع، وأن القرد يرضى ببعض نزوات السبع فيجاريها، ولكنه يعرف تأثيره عليه، لأن السبع لا يستطيع أن يكون سبعا من دون قرد.

وصلنا ليكسوس بعد لأي، وهي مدينة هادئة، يعيش ساكنتها على الصيد، وتجفيف السمك، واستخلاص الملح من ماء البحر، ويحبون المتع، ويشربون الخمرة، ويعشقون النسوة، ولهم اهتمام بعَروض الزينة. وقد ابتهجوا بعُروضنا، ولو أن الأسد كاد أن يخرج عن الدور المنوط به، فقفز من الحلبة إلى الجمهور لأن متفرجا استفزه، فعم هرج ومرج، وتدارك صاحب السيرك الأمر حينها جذب سلسلة الأسد بقوة، وهدده بِدِرَّة، وانصاع الأسد وتطامن كقط أليف.. لو أعمل الأسد عقله لأدرك

أن الدِّرّة ليس بالقوة التي تثنيه، ولكنه رُوّض على خشيتها، وكذلك الشعوب فهي تخشى قوى ضعيفة لا يمكن أن تثبت أمامها لو هي أبانت عن قواها ولكنها رُوّضت على الخوف فرضخت.

أقمنا بليكسوس، وقد أعجبت المدينة صاحب السيرك الذي تسرّى بفتاة قوطية تملك حانة، وكانت مناسبة لنستريح. أرجاء المدينة مليئة بالعشب وجمال الطبيعة. لم أشعر بالجوع، فالكلأ مبذول، ولكن الملل تسلل إلي، ثم كانت هناك قضايا وجودية تؤرقني وتقض مضجعي. تفكرت في الأتان التي تعرفت عليها في قنة الجبل وخفق لها قلبي، وتذكرت محنة الحكيم ووصاياه التي حمّلني.. مأساتي هي قدرتي على التفكير. مأساتي هي مشاعري، ولذلك لن أكون حمارا كامل الأهلية.. لم أعد أتلظى بماضي الإنساني وحده، بل كذلك بما اقترن بحياتي الحيوانية، فالأتان أضحت جزءا مني، وحِكَم الشيخ وصايا حُمّلتها في حياتي الحيوانية.

ولم نغادر ليكسوس إلى أن مل صاحب السيرك صاحبته القوطية، فأخذنا سبيلنا في اتجاه تين جيس.. عمّت بشائر الدفء الأرجاء، وبلغناها والصيف قد أهَلّ. كانت مدينةً مختلفةً عن المدن الأخرى، أقرب ما تكون إلي قيرطة بنوميديا. تحفها مرتفعات، وعليها تقيم الساكنة مساكنها، وهي خليط من الأجناس، من أمازيغ وقوط ووندال ورومان، تعيش على التجارة وتحب الحياة ومتعها. تختلف عن قيرطة في شيء، هو ضعف جانبها المعرفي، فلا تهتم بالمعرفة ولا تقيم وزنا للفكر، لأن مدار النجاح هو المال. وقد أُعجبْتُ بطبيعتها الساحرة ومناظرها الخلابة وحدائق إسبيريس بمرتفعات تطل على البحر يرى الإغريق أنها حدائق هرقل تعطي ثمارا من ذهب. وقد قدّمنا عرضا بمسرح المدينة وكان عرضا عاديا، لم يرْقَ إلى ما لاقيناه في المدن الأخرى، فلم يحضر عرضنا إلا الدَّهماء، أما العلية فمشغولة بتجارتها ومتعها. ولكن عرضا استأثر باهتمام المدينة أزرى بعرضنا هو مبارزة رجل لسبع. شاهدت عرضا منها بأليلي ملأني فرَقا حين مزق سبع أشلاء رجل

أعزل، ثم أمسك جثته بين فكيه، واعتلى صياح الجمهور بهجة لهذه المبارزة الفريدة. وكان علينا أن نحضر العرض بتين جيس من مسرح المدينة المشرف على الحلبة التي تطل على المرفأ.

وقف رجل أعزل وسط الحلبة، وكان ممشوق القَوام، مفتول العضلات، ولكن شيئا آخر يبدر منه هو هدوؤه، ولم يبد عليه الخوف أو بدر منه الجزع رغم صياح الجمهور، حتى إذا فُتح المنفذ الذي خرج منه الأسد هائجا، لم يتحرك الرجل. فلما اقترب منه الأسد هدده بحركة برأسه ويده فتراجع الأسد. ثم أخذ الأسد يزأر، فنظر إليه الرجل دون أن يتحرك بنظر حاد فأمسك الأسد. وأخذ السبع يهدد بمخالبه والرجل واقف في مكانه لا يريم، فتقدم السبع، وهدده الرجل بذراعيه، ولكن السبع لم ينثن هذه المرة، وأقبل على الرجل في عزم، وأمسك الجمهور أنفاسه لأنه أيقن أنها النهاية المحتومة، فإذا الرجل يمد ذراعه اليمنى كمن يستدعي الأسد في اتجاهها ثم يستدير في الاتجاه الأيسر ويأخذ في القفز حواليه كما لو هو عجلة. وارتاع السبع لهذه

الحركات، فأخذ في التراجع، والرجل يدور حوله حتى ذهب بعقله، فأخذ الأسد في الزئير، وتوقف الرجل عن الدوران، وأخذ يدور حول السبع راكضا، مُصَوِّبا نظره إليه، فاهتاج السبع وأخذ يحرك رأسه من فوق ومن تحت، ثم توقف الرجل، وانفتل السبع عائدا إلى مربضه..واهتز الجمهور. انتصر الرجل. انتصر على سبع أهوج بالذكاء ورباطة الجأش. أدركت حينها أن القوة ليست هي كل شيء.وقد أعلنت هيأة التحكيم انعتاق الرجل كما تجري قواعد اللعب، فالذي ينتصر على السبع يُعتق إن كان عبدا، ويُعفى من عقوبته إن كان ملاَحقا.

أما صاحب السيرك فأيقن أَنَّ عليه أن يُغيّر فقراته لكي يستجيب لمتطلبات الجمهور. لقد أيقن أن ما يروق ليس الألعاب البهلوانية التي كان يقدمها الفيل والقرد والأسد، أو تلك الرقصات التي كنت أرقصها والألعاب التي ألعبها مع الجمهور، وإنما تلك المشاعر القوية المنبعثة من خطر الموت. تخلص من الفيل بأحد الأسواق وقد اشتراه تاجر قوطي، وباع السبعَ والقردَ لثري روماني، ثم ركبنا البحر

من مرفأ تين جيس إلى سبتوم، لأن الطريق البرية ما بين تين جيس وتامودا وعرة، تتخللها غابة كثيفة بها حيوانات ضارية. وما أن بلغنا سبتوم حتى يممنا شطر تامودا برا، ولـم تكن الطريق بالصعبة رغم بعض المستنقعات، ثم إنَّ تخلُّصَنا من الحيوانات الأخرى جعل سيرنا قاصدا.

لم أكن أعلم ما يُبيّت صاحب السيرك، ولو علمت لأخذت حِذْري، أو لربما فررت.. كان يهيئني لمبارزة أسد، واستأجر لذلك سبعا ضاريا. ولم أعلم بالأمر إلا ليلة المبارزة. فكرت في الأمر طويلا. فمبارزة حمار لأسد تعني نهاية الحمار، وأي حمار يقوى على أسد؟ أكان ذلك وسيلة صاحب السيرك ليتخلص مني؟ كان يكفيه أن يبيعني، ولكنه كان يريد تخلصا مجزيا، وكان يريد أن يدخل سجل المصارعات القوية. فكرت فيما ينتظرني واستحضرت سابقة الرجل الذي انتصر على الأسد بالذكاء ورباطة الجأش، ولكن هل أستطيع أن أنتصر فيما انتصر فيه الإنسان؟ فله خفة ليست لي. أهي النهاية؟ نهاية حيوانية، أنا الذي كنت آمل أن أعود إلى إنسانيتي.

قدّرت أن أنتهي بشرف، مهما كان. أخذت قسطا من الراحة كأنني لست معنيا بالمواجهة. وطّنت نفسي على رباطة الجأش. أكلت فضلات بطيخ عفن وشربت ماء كثيرا.

دخلت الحلبة عند الغد عصرا وكانت غاصّة، واعتلى الصفير كما لو أن منظري لم يكن ليروق للجمهور. لم أكترث لمشاعر الدهماء. بقيت مُسمرا في مكاني حتى إذا فُتحت دفتا قبو الأسد أقبل هائجا مزمجرا، فعلا صياح الجمهور. كان الأسد عازما أن يجعل مني مضغة سائغة، فما كاد يبلغني حتى قفز علي، فملت جانبا وانحنيت بعض الشيء، فلم يصبني، فزاده ذلك اهتياجا. اعتدل ثم زمجر وهو يتأهب لأن يَنْقَضَّ علي، أخذت أعبث بقائمتي اليمنى الأمامية.. فازدادت زمجرته، إذاك رفعت قائمتي اليسرى، فأخذ الأمر يختلط عليه. كان علي ألا أمهله ليتفكر، إذ بعدها وقفت على قوائمي الخلفية، في وضع إنساني، وأخذت أرقص.. ضج المدرج بالضحك، فاغتاظ لذلك الأسد، ثم أخذت أدور حوله وهو يزمجر ويزأر. أخذ الجمهور يميل لصالحي

ويتندر بالأسد. وقد توقف الأسد كمن يستجمع قواه فهجم علي وأنا واقف وِقفة الإنسان. أصابني مخلبه في بطني. لم أشعر بألم، وإنما رأيت الدم ينِثُّ من جسدي. وإذاك لم أر بُدّاً من أن أواجهه بحيلة كنت فكرت فيها من قبل وهي أن أتبول عليه. سال بولي على وجهه كما لو هو ماء دافق ينبجس من عمق الأرض فغمر وجهه وعينيه، ولم يعد يرى بهما.. إذاك لم يتمالك الجمهور نفسه من الضحك، وأثّر ذلك على نفسية الأسد. لم يعد مالكا للمبادرة.. ما أن أنهيت تبولي، حتى أخذت أعبث بعضوي وقد انتصب، فأنزله كما لو هو سيف أريد أن أفتك به ، ثم أضرب به صدري، كمن يضرب على طبل، وأنا واقف في وضع إنساني فيثير ذلك خوف الأسد. أعتذر لمن يسمع حديثي وتلويحي بعضوي. أعرف أن في ذلك خدشا للحياء، ولكن المسألة كانت قضية حياة أو موت. لم يكن لي بد سوى أن أخرج أداتي، ولو أتيح للأسد أن يغرز أنيابه في جسدي لفعل، ولو كان لي أداة أخرى من شأنها أن تخيف لاستعملتها. ليس هناك معركة طاهرة. وغريزة الحياة توظف كل شيء.

أيقنت أن المعركة انتهت، فنزلت على قوائمي الأمامية واستدرت ظِهْرِيا. جمعت أنفاسي وأطلقت ما ببطني وكان إسهالا غطى وجه الأسد. لم يحتمل الأسد الإهانة فتراجع إلى قبوه خاسئا.

واهتزت جنبات المُدَرَّج بالهتاف والصياح. انتصر الحمار على الأسد. لم يكن ذلك متوقعا، وأعلنت لجنة التحكيم انعتاقي.. لم أعد مِلكا لأحد. لم يعد لأحد أن يمتلكني رسميا. ووُضع على رقبتي وشاح يمنع أيا كان من امتلاكي.

ونزل جمهور غفير الحلبة. لم أذكر منه إلا تلك الفتاة التي نزلت تعانقني وتربّت علي وتداوي جرحي والتي سأعرف من أمرها الشيء الكثير. كنت ذاهلا عن أجواء الحبور. كنت أود الدخول لمخدعي لأستريح..حاول صاحب السيرك أن يقترب مني، ولكن الفتاة صدته لأني أضحيت حرا. نظرتُ إليه نظرة ثاقبة ما إخال إلا أن أدرك

مغزاها. أهذه حقيقتك يا صاحب السيرك، أردتَ القضاء علي دون أن تُحَمّل نفسك وِزر هذه الفعلة الشنعاء..ألقيت بي في أتون المعركة مع سبع أَهوج وأنت تُقَدِّر أنه سيمزقني شر ممزق، ولم تتوقع أني أستطيع أن أنتصر، وليس النصر بالنسبة إلي إلا الإبقاء على الحياة. لسوف تسعى أن تسحب هذا النصر إليك، وتزعم أن الحمار حمارك، ولكني أعرف طويتك، ولم أعد منذ اليوم حمارك.. روّضتَ الأسد والفيل والقرد، وتخلصت منها بسهولة، وأردت التخلص مني بذكاء يعفيك من المسؤولية. ها أنا لا أزال حيا يا صاحب السيرك، ها أنا حُرٌّ يا صاحب السيرك.. حر رغم جراحي ورغم ندوبي.

وطار خبر انتصاري إلى الحمير، وأرادت أن تقيم احتفالا كبيرا، وخرجتْ في مظاهرات صاخبة، ولكني رفضت المشاركة في أي حفل والسير في أي مظاهرة. كنت جريحا. جريح النفس والجسد. كنت تعبا. أعياني وضعي الحيواني، ورفضت أن أصبح ألعوبة تتقاذفني الأيادي.

أخذتني الفتاة، وهي مناهضة لمنازلة الحيوانات، إلى فندق خاص بالدواب، واتخذتُ لي زاوية أضمد فيها جرحي، ثم نمت فيها ملء جفوني..

وجدت في جسدي خدوشا أخرى لم أنبته لها في النزال، أما الخدوش الغائرة فهي هذه المعاناة التي أعيشها وهذا التمزق بين وضع حيواني وآخر إنساني.. كنت كمن هوى عليه جبل فلم يعد يقوى على الحركة. عافت نفسي كل شيء، عافت الأكل والشُّرب وعزفت عن الخروج وملاقاة الحيوانات.. ولذلك لزمتُ الفندق لا أبرحه.

ماذا جنيت لكي ألقى هذا العذاب وألظى بهذا الشقاء، أهي حَوْبة الاستمتاع بما ليس لي؟ أهي الاغتراف من شراب محرم؟ أهي رغبتي أن أطير وأحلق في الأجواء، وكان حريا بي أن أذكر أن ليس على الإنسان أن ينفصل عن الواقع؟ ألا يكون فيما قاسيت كفارة لي؟ أيكون قدري أن أظل حمارا يُحمّلني حمال أثقاله، ويسومني العذاب، ويضن

علي بالأكل، ويتهددني بالخصي، ويعبث بي برابرة في شؤون معتقداتهم، يُقدّسني هؤلاء، ويزري بي أولئك فيَنْصبونني غرضا لحقدهم وجهالتهم.. أقدَري أن أُحرَم صحبة رجل حكيم وأن أرى ما نزل به من ظلم، فلا أستطيع أن أدفع عنه الضر؟ أقدري أن يوظفني صاحب سيرك لا يقيم للحيوانات وزنا إلا بالقدر الذي تضطلع بالدور الذي يريدها له ثم يتخلص منها بلا أدنى إرعاء.. أقدري أن أُدفع لعشرة حمير يهزؤون بي، ويريدونني حمارا مثلهم أكتفي بالأكل وبالنزو. تعبت ويئست وأظلمت الدنيا في عيني.

رفضت الخروج من الفندق، ودأبت دونا، وهي الفتاة المناهضة لتعذيب الحيوانات بزيارتي، وقد شعُرتْ بأني لست حمارا ككل الحمير. لست أدري مصدر شعور دونا حيالي، ولكن الذي أذكره هو ملازمتها لي في محنتي. كانت تزورني بالفندق كل يوم وتأتيني بالحشيش فأقضمه في عسر وقد عافت نفسي الأكل، فتحدثني حديثا رفيقا يذكّرني الحكيم. عرفت منها أشياء قربتها إلي، فهي أمازيغية

من أبيها، وندالية من أمها، ولدت بسبتوم وتعيش بتامودا، تزوجت فيما سلف من حياتها جنديا رومانيا ولكنها ما لبثت أن افترقت عنه، ومنذ فراقها أخلصت لما تراه غايتها في الحياة، التخفيف من معاناة الحيوانات، وكانت ترى قسوة الإنسان على الإنسان، وقسوة الإنسان على الحيوان. كانت تشبه الحكيم في أشياء وتختلف عنه في أشياء، كانت دائبة النشاط مثله، ولم تكن منعزلة مثله. لم تكن ذات ثقافة واسعة مثل الحكيم، ولكنها كانت ذات وعي عميق.. تجالسني وأنا ممتد فتضع ذراعها على رقبتي وتحدثني :

- إنهض من عثرتك أيها الحمار الوديع. دع عنك الأسى والحزن.. لستُ أراك حمارا ككل الحمير، ولو كنتَ حمارا لكنت مثلها تبتهج لنصرك، وتثأر لضيمك. أشعر أن لديك هذا الذي يميز الشعراء والفلاسفة، حزنك هذا الذي يغلب عليك. ولو استطعت الكلام، لنضح منك هذا الذي يملأ نفسك وحدثت بأشياء جميلة. أشعر بذلك، أشعر به من خلال هذه القوة التي أتيحتها النساء، الحدس،

أشعر بأن لديك شيئا ثاويا. لا تُضعه بهذا الحزن الذي ران عليك وأفسد عليك أمرك. إنْ هي إلا خطرات عابرة في حيوات الحيوان والإنسان. ولست أميز بينهما، فلقد وجدت عند بعض الحيوان من السمو ما لم أجده عند كثير من بني الإنسان. فزوجي كان يجري وراء النُّجح، ويذهل عن الشيء الأساسي في الحياة وهو السعادة، وكان يحب أن يقاتـل لرفعة شأن روما، ولا يهمه ما يصاحب ذلك من تقتيل وتدمير. كان مدفـوعا بغريزة، غريزة القـوة، وغريزة اللذة. فهل هذا من الإنسانية في شيء؟ وعرفت كلابا يغلب عليها الوفاء، وعرفت حميرا يطبعها الجلَد، وعرفت هررة ودودة، وعرفت سباعا أبية، ووقفت على كبرياء الخيل ونبلها...أليس مدار التمييز هو الأخلاق؟ أو ينبغي أن يكون هو الأخلاق.. تألم لأنك لا تستطيع الحديث، وهب أنك لا تستطيع الحديث فهل تحسب العقلاء من بني الإنسان غافلين عن جرحك، منهم من يدرك ما اعترى حياتك..

كنت أسمع حديثها فيُسرّى عني، فأغمض عيني ويغشاني الكرى، فإذا شعرت مني ذلك كفّت عن الحديث وأخذت في الرَّبت على شعري.. ولقد حدث مرة أن غلبها النوم فنامت بمحاذاتي. لسوف أصدقكم القول، لو كنت محبا أنثى من الإنسان لأحببت دونا، وأعتقد أني أحببتها من خلال شعور غريب كهذا الذي كانت تحدثني عنه هيباتا، هو الحب الأفلاطوني. أتطلع لزياراتها، وأستمتع بحديثها، وأجزع إن تأخرت أو تخلفت، وأجدني حيوانا آخر في صحبتها، ويشملني الحزن عند فراقها.. هل كان لديها نفس الشعور؟ لا أدري، ولا يحسن أن أطرح هذا السؤال.. وحتى لو أحبتني فلقد كانت موانع عدة تحول بيننا..

وتماثلتُ للشفاء، فأخذت أخرج صحبتها إلى المكان المعروف بتطاوين حيث العيون المتفجرة من سفح ربوة تعلوها أشجار سامقة ذات ظلال وارفة، فأستمع لخرير المياه وهي قربي تعبث بزهرة، أو هي تترنم بأغنية، ونحن ننظر إلى الأطفال وهم يبرغمون باللسان الأمازيغي أو

يخلطونه بالوندالي، وقد نزح كثير من الوندال من بلاد القوط واستقروا هنا.. أو نحن نسمع شدو النساء البهيج.. شعرت براحة، خاصة أن لم يعد أحد من بني الإنسان ليتجرأ علي وأنا أحمل وشاح الحرية.. وتساءلتُ هل أرضى بهذا الذي أنيلته بعد عناء، أم أكمل مسيرتي لكي أستعيد إنسانيتي؟ وهل هناك من ضمانة لكي أغدو إنسانا؟ كان لا بد أن أعود إلى حيث وقع التحول، إلى موطني. ولعلها أدركت ما كان يجول بصدري فقالت لي :

- إنك لتخفي شيئا أيها الحمار الودود. تراودك نفسك بالرحيل. لا ضير إن كان ما تروم منه هو ملاقاة نفسك. لن أمسكك ولو أني لسوف أجزع لهذا الفراق. ولست أشك أنك ستلقى نفسك، أو هذا الجزء منها الذي تبحث عنه، والذي يجعلك دائم الحزن..أنا واثقة أن سوف تجد ما تبحث عنه. سوف تجد نفسك. ولسوف تكون أزهى وأصفى مما كانت. سيلتقي فيها الجمال والعمق والصفاء.. لا تيأس. ولكن ملاقاتك لنفسك لا تكفي. إجعل من معاناتك

معراجا لكي يلقى قومك أنفسهم، إن ضلوا أو تاهوا.. تقول الميثولوجيا الإغريقية إن هرقل هو من فرَق الضفتين، وأنا أرى أن ما فرّقته الآلهة، يمكن للإنسان أن يجمعه. كن إحدى أدوات هذه القنطرة، فهذا الذي يجمعني أنا وأنت، لأني أخشى يوما تتعمق الهوة بين الضفتين، وأنا نتاج الضفتين. ولو حدث شرخ فلكأني قد مُزّقت شطرين. وهل ترى إنسانا بيد واحدة، و رِجل واحدة؟ وهل تراه يستطيع أن يتقدم، ويصنع، ويبصر وهو منزوع من شطره؟

تعال لأضمك أيها الحمار الودود.

انفلتت من الفندق الذي كنت أقيم به في الهزيع الأخير من الليل والدواب نائمة، فاتخذت سبيلي نحو الجنوب وسط مرتفعات حادة، ونأيت عن السبل المطروقة. مشيت طويلا وسط الوديان والأحراش والجُرُف. لم ألق في بداية مرحلتي تلك ما يعترض سبيلي. كنت أبدو حماراً ضالا لا يأبه به السابلة، وكان المارة عني في شغل. واستمررت في المشي بلا توقف حتى الأصيل، فتوقفت إذاك لأقضم بعض العشب، ثم جنّني الليل فنمت ملء جفوني..ولكني ما لبثت أن استيقظت على أصوات مريعة هي عواء الذئاب.. كنت أشعر بها تقترب مني وتشتد، ثم تكُفُّ بعدها فيعم الأرجاءَ السكونُ. حتى إذا أردت أن أستسلم للنوم عاودتْ عواءها..وقد أيقنتُ ألا مندوحة من اليقظة حتى لا تباغتني. فكيف إذا هي تغشّتني جماعات؟ وكيف إذا

هي أتتني من فوق ومن أسفل ومن صياصي الجبال..؟ وهل أثبت لها..؟ كانت الليلة غائمة مظلمة، وليس بها من نجم للاستهداء. وظللت كذلك حتى الفجر، فذهب عواؤها، وأخذتني سِنة من نوم فنمت.. حتى إذا استيقظت ضحى عاودت المسير..قطعت مجاري مياه جارفة تتخللها صخور ضخمة وعلوت مرتفعات شاهقة. وأخذ السير يعسر، ولم تكن الطريق معبدة، وكنت أستعين بحاسة الشم، فأجد الطريق عذراء لم تُسْلك، فأتردد أحيانا، وتقودني إلى أماكن مُقْفَرة، وما لبثت والشمس في سمتها أن أحاطتني كوكبة من الكلاب. كان نباحها شديدا مـدويا ينقدح منه الشر المستطير، وقد تجاهلتها فلم يزدها ذلك إلا سعارا.. كان منها ما يقترب مني حتى ليحاذي قوائمي أو يتهدد جسمي. وقد وطنت نفسي ألا أرد، مهما كان، فلو فعلتُ لاجتمعت حولي، ويكفي أن تبدأ المعركة حتى تذهل عن كل شيء، فتمزقني إرْبا إرْبا..أما وأني لا أرد، فهي تتحرش بي، ثم تنأى ولا تجرؤ أن تنالني بسوء..ودام ذلك ردحا من الزمن خلته دهرا، ثم تبدد شملها، وأتممت المسير في أرض تَلُفُّهَا

غابة كثيفة، ومشيت طويلا لا ألوي على شيء. وأحاطت بي جحافل من طير أبدت لي الود، فأنِسْت بصحبتها. علا بعضها صهوتي، وغرد ببعض الغناء ولو كان منكرا، ولكني وجدت بها بعض الصحبة، وشيئا من الأنس، وهي ليست كالكلاب التي أبدت قواطعَها تريد أن تمزقني. فإذا كان الليل نمت وقد هدّني التعب، وإذا أنا أستيقظ على مناقير طير تخزني في جسدي كله، وكان الليل بهيما لأتبين شكلها، ولكن صوتها انتهى إليّ، ولم تكن إلا تلك الطير التي أظهرت حسن العشرة وجميل الرُّفقة. لقد انتظرتْ حلول الليل وانتهزت حلكة الظلام لتبدأني بالعداوة..ولم تتوقف إلا عند سماعها لعواء الذئاب..وأخذ العواء يقترب، وانتابني ساعتئذ شعور الندم. إنها لمجازفة حقا أن أسلك سبيلا محفوفة بالمخاطر لا آمن مآلها. أمَا كان حريا أن أظل برفقة دونا حيوانا مُعززا مكرما، تحدب عليه وتعطف، يأتيه طعامه رغدا بلا كد؟. ما ذا جنيت من هذا الخيار الصعب؟ كلاب تتحرش بي، وذئاب تتهددني، وطير تَخِزُني.. مِن أجل ماذا؟ من أجل أن أمشي على قدمين، وأتكلم فيفهم الناس علي،

وأحب وأعشق وأغضب.. من أجل أن أعود سيرتي الأولى، إن عدتها. لا أدري أي حماقة انسلت إلى ذهني زينت لي العودة وجعلت التحول إلى الإنسانية ممكنا. ولكن هل أستطيع أن أعود أدراجي؟ الطريق إلى الوراء محفوفة بالمخاطر وليس لي إلا أن أُكْمل المسير.. واستأنفت السير. وكنت قاصدا في مشيي، تتوزعني مشاعر شتى. ينبغي أن أتمم المسير، ولكن هل أدري إلي أين أسير؟ إلى أهلي بأليلي، إلى بيت أمي. ألم أُزِحْ هذا العزم من نفسي من ذي قبل؟ ألم أكن أريد أن أجنّب أهلي خيبة المسخ إلى حمار؟ فلماذا أُقْدم على ما كنت أنفر منه سابقا؟ أليس ذلك دليلَ عجز وعلامة استكانة؟ نعم، هناك شعور خفي كان قد راودني وأنا برفقة دونا، وهي أن العودة قد تمهد لي السبيل للتحول؟ هو شعور، هو إحساس، ولكن على أي سند يعتمد هذا الشعور؟ ما الذي يضمنه؟ لا شيء. وإذن فلِم المسير؟ هو شعور من العبث استبد بي. لا أمل في الأفق، ولكن ينبغي التصرف كما لو أن أبواب الأمل مُشْرعة. وكنت أمشي، وأمشي، وأرفع رأسي، فأجد الضباع في شواهق الجبال تترصدني. لم تكن تبعث أي

صوت. كنت أراها مجتمعة في كل مرحلة من سيري وهي تُصَوِّب نظرها الخبيث نحوي. كان تنتظر أن أهوى. أن يُعيي بي المسير لتُجهز علي. لم تجرؤ أن تجابهني وما يزال بي فضْلٌ من قوة، ولكنها تنتظر أن أهون وأخِرَّ، وإذاك فلن توفرني..

وأصبح نباح الكلاب أمرا مألوفا، وكذا عواء الذئاب وترصد الضباع. دخلت منبسطا سهل الأكناف، يقيم به بعض الرعاة. لم يمسوني بأذى. أتممت المسير، حتى إذا كان الأصيل توقفت عند سفح مرتفع شاهق لا يمكن أن أجرؤ على تسلقه ليلا. هجعت لسويعات فاستجمعت بعض قواي، وعند الصباح، تسلّقته في تُؤَدَةٍ وعزم. كان أخطرَ ما فيه صخور ضخمة يمكن أن تهوى فتطمرني، ولذلك كان علي أن أمشي في يسر حتى ولو طال بي المشي. وأخذ التعب يدب فِيَّ رويدا رويدا، وشعور يدعوني للاستراحة، وآخر يستحثني : تشجع يا أسنوس، فالطريق تصبح وعرة حين نكون أقرب ما نكون من الهدف. لا تهن، وإلا فلِم جزت هذه

العقبات كلها؟ ألكي تستريح هنا؟ فلقد تباغتك الوحوش الضارية، والأنواء العاتية، وقد تهوى عليك الصخور الضخمة؟ تقدّمْ يا أسنوس. إرْقَ الجبل، وحينما تبلغ قمته آنذاك أرسلْ نظرك، وافعلْ ما بدا لك. ستكون إذاك في منآى من الأخطار؟ وبلغتُ بعدَ لأي قنة الجبل. كانت الشمس تميل إلى الغروب، وكانت أليلي تتراءى من بعيد، وعن شمالها قرية تيسيرا. لم يكن غروب نهار، بل غروب حياة. قدّرت أن المسافة لن تكون أكثر من أربع ساعات، ولو أني غادرت مكاني مع الفجر، فلسوف أبلغ قصدي وقد صَحَت أليلي لتخوض في شؤونها.. ثم استسلمت لمنظر الغروب الرائع. ذكرني بثوزيس حين نادتني لمشاهدة الغروب من شرفة بيتها قبل أن أمسخ حمارا. كنت أرى ذات الغروب بجماله وبهائه. ثيوزيس تستسلم لجمال الغروب، وحاتبوت تهيىء المجلس، ثم هي تخدمنا وتغلو في الخدمة.. كنت حين أحل عند ثيوزيس ألحظ حدب حاتبوت.. لماذا لم أتذكر ذلك حتى هذه اللحظة في حياتي الحيوانية؟ هل حجبت المتعة النظر الثاقب؟ هو هذا الذي وقع، كانت بي

غشاوة من غرور وسعي نحو اللذة لأرى الأشياء كما هي. لم أكن أرى إلا ما أريد أن أرى. كنت أمر على الأشياء دون أن أقف عليها أو أدرك كنهها.

لا، لن أذهب توا إلى المدينة. لسوف أذهب إلى العين الدافئة لأغتسل، ولو أطلت يوم العودة يوما آخر..

عند الغد استأنفت المسير. نزلت سفح الجبل في يسر، ثم تتبعت مجرى نهر. كان صبيبه متدنيا لأن الوقت خريف. مشيت مشيا قاصدا وقد خلا ذهني. لم أعد أفكر في شيء سوى العين. تركت المدينة عن يميني ويممت شطر الجبل عن الشمال. بلغته عصرا، والتمست ظلا ظليلا تحت شجرة فنمت.. أخلفت الغروب. حينما استيقظت كانت السماء مرصعة بالنجوم. تبددت الغيوم التي ملأت السماء وأنا في طريق العودة. أثقلتْ علي الأوضار التي يحملها جسدي ولم أنتظر الفجر لأغتسل. مشيت إلى العين ونزلت محلتها. قدمت قوائمي الأماميتين فالخلفيتين وسرى دفء الماء في جلدي. تمددت على ظهري كما يفعل الإنسان. استسلمت

لراحة غريبة. أغمضت عيني، وشعرت كما لو أن أوساخا تنسلخ من جلدي من دون أن أدلكه.حركت قائمتي فإذا هي تطاوعني. استغربت للأمر. حركت قائمة الشمال فهي تسري في جسدي في يسر، أخرجتهما من الماء، فإذا هما يدان. اهتززت مرتاعا، فإذا أنا أقف على رجلي وإذا أنا إنسان من جديد. حركت يَدَيَّ من جديد لأتأكد، رفعتهما لوجهي، فإذا هو وجه إنسان. بحثت بين فخدي، فإذا عضوي ليست تلك الأداة الضخمة التي كانت ترهب خصومي.. نظرت إلى جسدي فإذا هو يحمل ندوب مرحلتي الحمارية حين مبارزتي للأسد. إنسان أنا يولد من جديد. إنسان يوِّلد ذاته من ذاته، من دون قابلة لأنه قابلة نفسه. لم أستطع قمع صرخة، صرخة الاستهلال. صرخت ثانية، فإذا هي صرخة إنسانية. رددت ما بنفسي، أنا أذربال، ثم همست بها، وأخيرا صرخت بها وانتهى صوتها إلى أذني دقيقا صافيا : أنا أذربال ولم يكن نهيقا.

كان نور الصبح قد أخذ ينتشر في الأرجاء. كنت أمشي في حضن الجبل عاريا، وخشيت أن ألتقي بواحد من بني

الإنسان فيظن بي الظنون. فكرت في كهف الحكيم وقصدته للتّو. وجدت إزارا له اشتملتُ به ربطته بخلخال على شاكلة الأمازيغ.انتعلت خُفّا له. أجَلْتُ النظر حول الكهف فكان كما تركته، كتب في الرف، ثم على مائدته كتاب حِكَم مارك أوروليوس، وجمهورية أفلاطون وخواطر سينيك لم تنل منها الرياح والأنواء.. كانت روح الحكيم تطوف بتلك الأرجاء. كان يسكنني. وجدت أسفل الرف ورقا من البردي عليه كتابات هيروغليفية. استغربت للأمر. لم يحدثني الحكيم عن سابق معرفة له باللسان القبطي أو كتاباتهم. ثم يممت شطر أليلي أمشي خفيفا رشيقا كأني أطير في السماء.. دخلتها والساعة ضحى من بابها الجنوبي حيث الساكنة، كانت أزقة المدنية مكتظة بالسابلة، والناس في شغل منغمرون في همومهم وشؤونهم، لا يستبد بهم ما استبد بي من قلق منذ أن مُسخت. وقفت على بائع عطور يحبب بضاعته، ثم تحولت عنه إلى بائع أواني يزين صناعته، وآخر، فحاكي يتلو قصة أتان وضعت ولـدا، والناس حوله يخِرّون بالضحك... كانت نفسي في حالة غريبة تريد

أن تمسك بتلابيب الحياة كلها. تريد أن توقف كل لحظة من الزمن.. لم أكن أحفل من ذي قبل بهذا الذي تموج به الحياة. كنت أنظر إليه بازدراء. كنت أحسبها أخذا لمعارف، وسعيا لمتع، وجريا وراء حظوة، ولم أقدّر أن تكون سفرا في الذات. سفري بداخل نفسي هو الذي فتح عيني على الحياة وغناها..ثم قصدت حي اللاتيوم حيث يسكن أهلي. طرقت الباب. تُرى لو رحل أهلي؟ تُرى لو أصابهم مكروه؟ عاودت الطرق، ففتح خادم لا أعرفه. سألني من أنا، أجبته أني أذربال ؤو بوگود ، نظر باستغراب، وقال :

- أذربال مات، ويحسن بك حيلة غير هذه لتحتال على الناس.

وتأهب ليغلق الباب، ولكن صوتا نسويا يسأله فيرد :

- نّا يزة، نصّاب يزعم أنه أذربال..

وإذا المرأة تردد :

- أذربال؟ هل هذا صحيح؟ أذربال ولدي.

تأتي مسرعة ثم ترتمي في حضني وتضمني.

- أذربال، كنت على يقين أنك ستأتي. كنت أشعر أنك لم تمت..

وضممتها إلي ضما. شعرت أني أُبعث من جديد.

أفسح لي الخادم في الدخول. سألت عن والدي، فنظرت أمي إلى منكسفة :

- مات بوكود. لتكن موته بعثا لك يا ولدي..

زممت شفتيَّ أسى. دخلت باحة البيت.

سألتُ :

- ومتى كان ذلك؟

- بُعيد اختطافك. وَثِقَ أنك قُتلت فشفَّه الكمد، ووثقت أنك لم تمت فاستمسكت بالحياة..

وخيم علينا الصمت، ولم يقطعه إلا صراخ طفل :

- أستميحك عذرا أذربال، هو يوبا قد استيقظ، وينبغي أن آخذه عند المرضعة..

طفل؟ في بيتنا؟ هل تزوجت أمي؟ وهبْها تزوجت، لا يمكنها في سنها أن تنجب..

سألتُ ببراءة :

- ولمن يكون الطفل؟

- وجدته ملقى في أرباض المدينة مع أتان تحنو عليه. كان يبدو عليها الوضع، ولعلها أن تكون فقدت جحشها، فأسبغتْ على الرضيع عطفها. حملتُه فملأ نفسي حبا، وأزاح عنها الحزن.

واعتُقل لساني. سألتها عن لون الأتان، فأجابت أنها قمراء، ثم ندّ عنها ابتسامة .

- وما شأن لونها يا ولدي؟

هي الأتان التي نزوت عليها إذن، وهي قد وضعت طفلا هو ابني.. وإذن كانت الأتان مثلي امرأة مُسختْ كما مُسختُ، وابتليتْ مثلما ابتُليت..وفهمت إذاك لم لم تكن تفهم عني حين كنت أحدثها بلغة الحمير، ولماَذا كانت تخشع لأشعار الحكيم، ولماذا كانت دموعها تسيل وهي تسمع قصص الحكيم.. من تكون الأتان، عفوا، المرأة التي حملت مني، وأنجبت مني؟

- يو أُمّاه، أريد أن أرى الطفل، قلت لأمي.

اقتفيتُ خطاها إلى الغرفة التي بها درجت، ووجدت طفلا في مهد يعبث برجليه ويمنطق لسانه. وضعت أصبعي على جبين الطفل ثم مسحت به عليه، فاستكان. رفعته إلي ثم طبعت على جبينه قُبلة. هل أحكي لأمي ما جرى؟ هل أقول لها إن الطفل ولدي، من صلبي؟ لو أفعل فينبغي أن أطلعها على حلقات حياتي كلها. أحجمت. لم يكن الحاكي مخطئا حين كان يُحَدّث عن الأتان التي وضعت إنسانا وكان الناس يهزؤون منه.

طلبت من أمي أن تدلني على المكان الذي وجدت به الطفل. قالت هو أسفل كهف في حضن الجبل..عدت أدراجي إلى الكهف. كانت الشمس قد أذنت بالمغيب، وكانت هامة ملتحفة بإزار تبدو من بوابة الكهف تنظر إلى المغيب كما كان يفعل الحكيم.. أسرعت الخطى. أثار الهامةَ خطوي فانتفضتْ، أخذت تسرع نحوى، ولم نتمالك أن ألقينا بعضنا في حضن الآخر. كانت حاتبوت.. وفهمت كل شيء. فهمت أن حاتبوت كانت تضمر لي الحب، وفهمت أنها كانت تريد أن نتحول أنا وإياها طائرين، وتُمسخ تيوزيس أتانا، فاختلط عليها الأمر..فلما رأتني تحولت حمارا، نالت من الشراب الذي حولني ومُسخت هي على أَثَـرِه أتانا..

- ها نحن التقينا بعد فراق، قالت حاتبوت..

قلت :

- وبعد عذاب.

ردت :

- هو ثمن اللقاء.

- وثيوزيس؟ سألتُ.

- فرت إلى تين جيس وغالب الظن أنها رحلت.

- والدم على القميص؟

- دمي قبل أن أُمسخ.. صفدت عروقي لأبعث رسالة..كنت أريد من المدينة أن توقن بأنك مت، وبأني اختطفت لكي نستكمل سفرنا الذاتي. هي معتقداتنا نحن القبطيين. لكي يتخلص الإنسان من عنصره الحيواني عليه أن يقوم بسفر داخلي.

- هل تعلمين شأن الطفل؟

- هو عند أمك، عرفتها حين أخذت الطفل. أتت نسوة كثيرات فصددتهن، فلما كانت أمك، أرخيت أذني واستسلمت لرغبتها وكنت لا أزال أتانا. بعدها ذهبت إلى العين لأغتسل، ثم عدت إلى طبيعتي الإنسانية. سكنت الكهف، وعكفت به أنتظرك..

- لِمَ لم أجدك بالكهف؟

- كان عليك أن تجدك ذاتك أولا، مثلما وجدتها لوحدي. لم أكن أستطيع لأعينك في شيء.

- وهل يعلم أحد بأمرك؟

- ابنة الحكيم. أتت لتأخذ أغراض والدها بعد إذ مات في السجن فوجدتني هنا، وحسبتني زوجا له أو خادما فقالت لي : أنت أولى به وبأغراضه.

أخذت يد حاتبوت. نظرنا إلى شفق السماء..

قالت : ما أجمل الغروب.

قلت : هو إيذان لفجر جديد.

بريش 25 غشت 2013

الرباط 3 سبتمبر 2013

نظرتُ في مرآة، فإذا أنا حمار كامل الأوصاف لا أختلف عن الحمير إلا في شيء أضحى مصدر معاناتي هو قدرتي على التفكير، إذ كان الأمر سيهون لو حُرمت التفكير وعشت حياة الحمير لا أختلف عنها في شيء، والحال أني سوف أعيش وسط الحمير حمارا يأتي ما تأتي ويحمل من الأثقال ما تحمل، ويختلف عنها في شيء، قدرته على التفكير، ويؤلمه ألا يحسن التعبير عما يجيش به صدره من أحاسيس ويمتلئ به من رؤى. وها هنا تبدأ مغامراتي التي أريد أن أبثك إياها أيها القاريء فلا تنأ عني.

48,00 درهما